



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور الجلفة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ وعلم الآثار



**عوامل النصر والانتشار ومكامن الهزيمة
والانكسار في معارك المسلمين بالأندلس
من معركة وادي برباط إلى وقعة العقاب
(من 92هـ / 711م إلى 609 هـ-1212م)**

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ
تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

إشراف الدكتور:

أ.د محمد عيساوي

إعداد الطالب:

أحمد هبول

الموسم الجامعي: 1446-1447هـ / 2025-2026م



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور الجلفة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ وعلم الآثار



عوامل النصر والانتشار ومكامن الهزيمة والانكسار في معارك المسلمين بالأندلس من معركة وادي برباط إلى وقعة العقاب (من 92هـ / 711م إلى 609 هـ-1212م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ
تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيسا

جامعة الجلفة

د/ ميلود بن الحاج

مشرفا ومقررا

جامعة الجلفة

أ.د/ محمد عيسوي

عضوا ممتحنا

جامعة الجلفة

د/ برق الأغويني

الموسم الجامعي: 1446-1447هـ / 2025-2026م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرافان

"أتقدم بخالص الشكر والعرافان بالجميل إلى أستاذي الفاضل

الدكتور عيساوي محمد

الذي تفضّل بقبول الإشراف على هذه المذكرة،

فلم يخل عليّ بوقته الثمين ولا بمعلوماته الواسعة،

وكان لتوجيهاته النيرة ونصائحه القيمة أبلغ الأثر

في توجيهه دفعة البحث وإخراجه في صورته النهائية.

وأشكر من خلاله كل أساتذتنا الأكارم في تخصص " تاريخ الغرب الإسلامي "

كل باسمه ومقامه.

"سيبقى جميلكم في صدورنا وتقديركم في قلوبنا

مدى الحياة."

أسأل الله العليّ القدير أن يجازيهم عني

وعن زملائي الطلبة خير الجزاء.

الإهداء

باسم الذي علم القرآن، وجعل العلم شرطاً للإيمان، وجعل التوكل من مراتب الإحسان، وربط المحبة في أعمالنا بالإتقان، نسأله تعالى أن يكرم جهدنا بالقبول والرضوان.

إلى خير الخلق وسيد الأنام، رفيع الدرجة محمود المقام، وشفيع الأمة يوم الزحام، حبيبنا محمد عليه الصلاة والسلام

إلى صاحب القلب الكبير، والظل الوفير، إلى خير سند ونصير، والدي العزيز حفظه الله تعالى

إلى صاحبة الجفون العانية، والأيدي الحانية، إلى الرحمة واللجنة الدانية، إلى أمي الغالية حفظها الله تعالى

إلى رفيقة دربي ومسكن روحي وزوجتي وصديقتي

إلى من عليهم اعتمدت واكتسبت بوجودهم قوة

إخوتي وأخواتي:

إلى كل العائلة وأصدقائي

إلى أميرة قلبي الصغيرة

"زهرة ريجان"

مقدمة

مقدمة:

يُعدّ تاريخ الأندلس من أبرز الحقب التي تجسّد تعاقب التحولات الكبرى في مسار الحضارة الإسلامية، حيث شهدت هذه الرقعة الجغرافية الممتدة في شبه الجزيرة الإيبيرية قيام تجربة تاريخية متميزة، تداخلت فيها الأبعاد السياسية والعسكرية والدينية، في إطار صراع طويل بين المسلمين والممالك النصرانية. وقد تميز هذا التاريخ بتدرج واضح في مساره؛ إذ انتقل من مرحلة الفتح والتوسع إلى مرحلة الاستقرار، ثم إلى طور التراجع والانحسار، وهو ما يعكس طبيعة التحولات التي تعرفها مختلف التجارب التاريخية عبر الزمن.

ولم تكن هذه التحولات مجرد أحداث متفرقة أو معارك معزولة، بل جاءت في سياق تاريخي مترابط، شكّلته مجموعة من الوقائع والتطورات التي أسهمت في رسم ملامح الصراع بالأندلس. فمنذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامي، برزت معارك حاسمة والتي كان لها أثر بالغ في تثبيت الوجود الإسلامي وتوسيعه كمعركة برباط 92هـ/711م، لتتحول الأندلس في غضون سنوات قليلة إلى جزءٍ فاعلٍ من العالم الإسلامي، تسوده مظاهر الاستقرار والازدهار، ثم تتابعت الأحداث لتكشف عن تغير تدريجي في موازين القوى، وصولاً إلى مراحل اتسمت بالضعف والتفكك، وانعكست بشكل واضح في طبيعة المواجهات العسكرية ونتائجها من تراجع وانكسار، والتي تجلّت بوضوح في معارك فاصلة كان آخرها معركة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، والتي شكّلت نقطة تحول حاسمة في تاريخ الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية.

ومن هنا فإن دراسة معارك المسلمين في الأندلس، الممتدة من معركة برباط إلى معركة حصن العقاب، تكتسب أهميتها من كونها تمثل إطاراً زمنياً يعكس مختلف أطوار هذه التجربة التاريخية، ويتيح فهماً أعمق لمسارها العام. كما أن هذا التتبع لا يهدف إلى عرض الوقائع فحسب، بل يسعى إلى قراءة هذه المرحلة في ضوء تساؤلات جوهرية تتعلق بكيفية تشكل القوة

في بداياتها، وطبيعة التحولات التي طرأت عليها، والعوامل التي أسهمت في تغير مسارها عبر الزمن.

وعليه، فإن هذا الموضوع ينطلق من محاولة استكشاف هذه التحولات من خلال تحليل مسار المعارك الكبرى، بما ينسجم مع الإشكاليات المطروحة، ويفتح المجال لفهم أشمل لطبيعة الصراع بالأندلس، في إطار رؤية تاريخية مترابطة تجمع بين التسلسل الزمني والتحليل التاريخي.

الإشكالية:

شهدت الأندلس عبر تاريخها الإسلامي تحولات عميقة ارتبطت بسلسلة من المعارك الحاسمة التي بدأت بفتح سريع وانتصارات متتالية، وانتهت بتراجع تدريجي وانكسارات مؤلمة. ولم تكن هذه التحولات وليدة الصدفة، بل جاءت نتيجة تفاعل معقد بين عوامل سياسية وعسكرية واجتماعية، داخلية وخارجية، أثرت في مسار الصراع بين المسلمين والممالك النصرانية. ومن هذا المنطلق، تبرز أهمية دراسة هذه المرحلة لفهم طبيعة العوامل التي أسهمت في بناء القوة في بداياتها، ثم تلك التي أدت إلى ضعفها وتفككها مع مرور الزمن.

وانطلاقاً مما سبق نذكر الإشكاليات الآتية:

ما هي أبرز العوامل التي مكّنت المسلمين من تحقيق النصر والانتشار في الأندلس منذ معركة برباط، وما الأسباب التي أدت إلى تراجعهم وانكسارهم لاحقاً؟

الاسئلة الفرعية:

ومن خلال ما سبق تبادرت الى ذهننا بعض الإشكاليات:

- ما هي الظروف السياسية والاجتماعية التي سبقت الفتح الإسلامي للأندلس؟
- ما أبرز العوامل التي ساهمت في انتصار المسلمين في معركة برباط وبداية التوسع؟

- كيف ساهمت القيادة والتنظيم العسكري في تحقيق الانتشار السريع داخل الأندلس؟
- ما دور الوحدة السياسية والدينية في تعزيز قوة المسلمين خلال المراحل الأولى؟
- ما أسباب ظهور الانقسامات الداخلية في الأندلس (عصر ملوك الطوائف)؟
- كيف أثرت الصراعات الداخلية على القدرة العسكرية للمسلمين؟

الدراسات السابقة:

توزعت الدراسات السابقة حول موضوع الأندلس ومعاركها بين دراسات عامة وأخرى خاصة:

- دراسات التاريخ السياسي والعسكري العامة: من بينها رسالة فضيل بوالصوف حول "العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف"، ودراسة العايب ناصر، وخليفة حنان، "مملكة قشتالة ودورها في إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس (ق5هـ - ق9هـ)"، ورسالة بن حاج ميلود عن "الصراع الإسلامي النورماني في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني". ورغم قيمة هذه الدراسات وغيرها وما أفدنا منها، فإنها لم تقدم تحليلاً مقارناً شاملاً يمتد من الفتح إلى حصن العقاب.

- الدراسات الخاصة بمعارك مفردة: مثل أعمال شوقي أبو خليل عن الزلاقة وبلط الشهداء، ودراسة العربي محمد أمين والعربي سكينه حول "معركة الزلاقة وأثرها في توقيف الزحف الصليبي"، ومذكرة أحمد كرعي ووليد بورويس عن "معركة العقاب". ورغم دقتها، إلا أنها بقيت حبيسة حدث واحد، دون بناء رؤية تركيبية تربط بين عوامل النصر في البدايات وأسباب الهزيمة في النهايات.

- ما حاولت أن تتميز به هذه الدراسة أن تسد هذه الفجوة، من خلال تقديم قراءة تحليلية متكاملة ومقارنة تمتد من معركة برباط إلى معركة حصن العقاب، محاولة الربط العضوي بين سلسلة المعارك كحلقات في سيرورة تاريخية واحدة لا كأحداث منفصلة.

أسباب اختيار الموضوع:

يعود اختيار الموضوع إلى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية:

أسباب اختيار الموضوع

1- أسباب ذاتية:

- الاهتمام الشخصي بتاريخ الأندلس لما يحمله من دروس وعبر دينية وحضارية وعسكرية .
- الرغبة في فهم أسباب القوة والضعف في التجربة الإسلامية بالأندلس .
- الميل إلى دراسة المسارات والتحويلات التاريخية الكبرى وكيف تؤثر في مصير الأمم، والإفادة منها.

2- أسباب موضوعية:

- أهمية الموضوع في تفسير مسار الصراع الإسلامي- النصراني في الأندلس .
- ارتباطه بقضايا تاريخية كبرى مثل الفتح، الوحدة، والانقسام السياسي .
- قلة التركيز على الربط بين عوامل النصر والهزيمة في دراسة واحدة متكاملة .

- الاستفادة من التجربة الأندلسية لاستخلاص دروس تاريخية عامة .

أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة لكونها تسلط الضوء على مرحلة حاسمة من تاريخ الأندلس، حيث شهدت تداخلاً بين عوامل القوة والضعف في تشكيل مسار الأحداث. فهي تساهم في فهم طبيعة التحولات التي عرفها الوجود الإسلامي بالأندلس، من مرحلة الفتح والازدهار إلى مرحلة التراجع والانكسار. كما تساعد في إبراز القوانين التاريخية التي تحكم صعود الدول وسقوطها، مما يمنحها بعداً تحليلياً يتجاوز السرد إلى استخلاص العبر والدروس.

الإطار الزمني والمكاني للدراسة

تُحدد هذه الدراسة إطارها الزمني والمكاني انطلاقاً من طبيعة موضوعها الذي يتتبع مسار المعارك الكبرى في الأندلس من لحظة الفتح إلى لحظة الانهيار، إذ تمتد زمنياً من سنة 92هـ/711م (معركة برباط) إلى سنة 609هـ/1212م (معركة حصن العقاب)، أما مكانياً فتغطي الدراسة كل أراضي الأندلس أي كامل الرقعة الجغرافية التي خضعت للحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال هذه الفترة.

الإطار الزمني للدراسة

يمتد الإطار الزمني للدراسة من عام 92هـ/711م (تاريخ معركة برباط) إلى عام 609هـ/1212م (تاريخ معركة حصن العقاب)، مما يتيح تتبع دورة كاملة من القوة إلى الضعف، ولم نعتمد ترتيب المعارك داخل فصول الدراسة ترتيباً زمنياً محضاً، بل صنّفناه وفقاً لطبيعة كل معركة (نصر أو هزيمة)، مع الالتزام بالتسلسل الزمني داخل كل فصل على حدة.

الإطار المكاني للدراسة

تغطي الدراسة مكانياً كامل الأندلس في أقصى اتساعها خلال الفترة المحددة (92-609هـ/711-1212م)، من جبال البرانس شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى الثغور الشرقية. وتتركز الدراسة على المراكز السياسية والعسكرية الكبرى التي دارت حولها المعارك (قرطبة، طليطلة، إشبيلية، سرقسطة)، مع استبعاد مملكة غرناطة بعد 609هـ .

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل العوامل التي أسهمت في تحقيق انتصارات المسلمين في بداية الفتح، والكشف عن الأسباب التي أدت إلى تراجعهم لاحقاً. كما تسعى إلى إبراز دور العوامل الداخلية، مثل الوحدة والانقسام السياسي، إلى جانب العوامل الخارجية المرتبطة بضغط الممالك النصرانية. إضافة إلى ذلك، تهدف إلى تقديم رؤية متكاملة لمسار المعارك من برباط إلى حصن العقاب، بما يساعد على فهم شامل ومترابط لهذه المرحلة التاريخية.

منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، حيث يظهر الوصف في تتبع وتبيان الأحداث والوقائع المرتبطة بالمعارك موضوع البحث وفق تسلسلها الزمني، ويتجلى التحليل في استقراء العوامل المؤثرة فيها سياسياً وعسكرياً واجتماعياً. كما يقوم هذا المنهج على المقارنة بين فترات القوة والضعف لاستخلاص النتائج، وكل ذلك مع الاستناد إلى مصادر تاريخية متنوعة بهدف تقديم قراءة علمية دقيقة ومتوازنة.

خطة الدراسة:

تتناول هذه الدراسة موضوع عوامل النصر والانتشار ومكامن الهزيمة والانكسار في معارك المسلمين بالأندلس من برباط إلى حصن العقاب، من خلال خطة منهجية متكاملة تبدأ بمقدمة تمهيدية، ثم تتوزع على ثلاثة فصول رئيسية. يعالج الفصل الأول الخلفية التاريخية

للصراع الإسلامي- النصراني، من خلال تتبع مسار الفتح الإسلامي وتطور الدولة الأموية، ثم مرحلة ملوك الطوائف وما صاحبها من تفكك، وصولاً إلى دور المرابطين والموحدين في محاولة استعادة التوازن. أما الفصل الثاني فيركز على معارك النصر الكبرى مثل برباط والزلاقة والأرك، من حيث سياقاتها ومجرياتها وعوامل الانتصار فيها، مع تخصيص دراسة تحليلية مقارنة لاستخلاص أبرز عناصر القوة كالوحدة السياسية والكفاءة العسكرية والدافع العقائدي. في حين يعالج الفصل الثالث معارك الهزيمة مثل بلاط الشهداء والخندق وحصن العقاب، محللاً أسباب الانكسار من خلال دراسة الظروف السابقة وسير المعارك، ثم مقارنة العوامل المشتركة كالتفكك الداخلي وأخطاء القيادة والتفوق المعادي. وتختتم الدراسة برؤية تحليلية شاملة تسعى إلى الربط بين مراحل القوة والضعف، واستخلاص الدروس التاريخية من التجربة الأندلسية.

وفي الأخير الخاتمة تطرقنا إلى أهم النتائج المتوصل إليها.

صعوبات الدراسة:

تواجه هذه الدراسة جملة من الصعوبات التي قد تؤثر في دقتها وشموليتها، من أبرزها تباين الروايات التاريخية حول بعض الأحداث والمعارك، مما يفرض صعوبة في التحقق من صحتها وترجيح بعضها على بعض، إلى جانب ذلك فإن تشابك العوامل السياسية والعسكرية والاجتماعية يجعل عملية التحليل أكثر تعقيداً، إذ يصعب أحياناً الفصل بينها بشكل واضح. كما قد تبرز صعوبة في الربط بين مختلف المراحل التاريخية الممتدة زمنياً، مما يتطلب جهداً تحليلياً كبيراً لضمان تقديم رؤية متماسكة ومترابطة.

المصادر والمراجع المعتمدة:

المصادر:

تستند الدراسة إلى مصدرين أصليين من أبرز ما دون التاريخ الأندلسي، وهما:

1. "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية (ت 367هـ/977م) : يتميز هذا المصدر بمنظوره الفريد، إذ أن مؤلفه من سلالة آخر ملوك القوط، مما يمنحه رؤية داخلية لأسباب سقوطهم. اعتمدت عليه بشكل رئيسي في الفصل الأول والثاني، مع موازنة رواياته بما يقدمه ابن حيان، نظرًا للفجوة الزمنية بين الأحداث وتدوينه.

2. "المقتبس من أبناء أهل الأندلس" لابن حيان القرطبي (ت 469هـ/1076م) : يصنف هذا المصدر باعتباره "أم المصادر الأندلسية" وأكثرها دقة ومنهجية نقدية. وقد كان هذا المصدر العمود الفقري للدراسة بأكملها، خاصة في تتبع مراحل القوة والضعف، وتحليل المجريات التفصيلية للمعارك الكبرى، وفهم الصراعات الداخلية.

المراجع:

لتحليل هذه المصادر وتفسيرها، اعتمدت على مجموعة من المراجع المختصة في تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مرجعين أكاديميين رصينين هما:

1. "دولة الإسلام في الأندلس" لمحمد عبد الله عنان : استخدمت هذا المرجع الشهير كإطار ناقد للمقارنة بين الروايات المختلفة وترجيحها، وكبوصلة لربط الأحداث المتفرقة في سردية متماسكة، خاصة في عصر ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين.
2. "التاريخ الأندلسي" لعبد الرحمن علي الحجي : لقد كان "التاريخ الأندلسي" مرجعي الأساسي في تحليل العوامل البنوية (الاقتصادية والاجتماعية) التي شكلت خلفية المعارك، وفي منهجية المقارنة بين فترات القوة والضعف.

الفصل الأول:

الخلفية التاريخية للصراع الإسلامي

– النصراني في الأندلس

المبحث الأول: من الفتح الإسلامي للأندلس إلى نهاية الدولة الأموية

المطلب الأول: الفتح الإسلامي للأندلس وتأسيس الحضور الإسلامي (92-138هـ)

شكّل الفتح الإسلامي للأندلس بداية تحول في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية، إذ جاء امتداداً لفتوحات الدولة الأموية في الغرب الإسلامي بعد إحكام السيطرة على بلاد المغرب وتنظيمه، وفي ظل ما عرفته المملكة القوطية من تفكك سياسي، وجّه موسى بن نصير¹ حملة عسكرية إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد² الذي عبر المضيق سنة 92هـ/711م ونزل بجبل طارق، مؤسساً أول وجود إسلامي بها، وقد حفظت المصادر هذه اللحظة بقولها: "عبر البحر في جنّدٍ من المسلمين حتى نزل بالجبل المنسوب إليه اليوم، فكان ذلك أول نزول للمسلمين بأرض الأندلس"³، كما يصفها المؤرخ ابن حيان القرطبي (ت 469هـ/1076م) بقوله: "فلما نزل طارق بالجبل الذي سُمّي باسمه جمع جنده ورتّب صفوفه، وأخذ في تدبير أمر الحرب"⁴.

وسرعان ما تحدد مصير الحكم القوطي عقب معركة وادي لكة، حيث انهزم لذريق⁵ وجيشه هزيمة حاسمة أدت إلى انهيار ملكهم، وقد عبّر المؤرخ ابن عذارى

¹ موسى بن نصير أبو عبد الرحمن اللخمي، تابعي وقائد إسلامي بارع، روى عن بعض الصحابة كتميم الداري، أبوه نصير ممن شهد معركة اليرموك وكان رئيس حرس معاوية ومقرباً منه. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص497. انظر أيضاً: راغب السرجاني، قصة الأندلس، من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011، ج1، ص28.

² طارق بن زياد: هو بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن برغاسن بن ولهاص بن يطونث بن نفازو فهو نفزي ذكر أنه من سبي البربر، و كان مولى موسى بن نصير، ابن عذارى، البيان المغرب، ج 1 ص 43 ، وانظر عن طارق بن زياد الذهبي سير أعلام النبلاء ج 4 ص 268

³ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1995م، ص 205

⁴ ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م، ج1، ص 35.

⁵ لذريق أو رودريك: «الخلاف شديد حول أصل لذريق، فمن قائل: إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمر الحرب والسلم، ومن قائل: إنه ينحدر من أصلاب ملكية، وأن جدّه الملك شنداسفنتو، ومن قائل: إنه ابن تيودفريدو دوق

المراكشي (ت بعد سنة 712هـ/1312م) عن ذلك بقوله: "فكانت الدائرة على لذريق وجموعه، وقُتل من عظمائهم خلق كثير، وتفرقت جموع القوط بعد ذلك"¹، بينما يؤكد ابن حيان أن "القوط لما انهزموا يوم برباط انفرط عقد ملكهم، وتتابعت البلاد في طاعة المسلمين"²، وأتاح هذا الانتصار للمسلمين التقدم السريع فدخلوا قرطبة والبيرة ثم طليطلة دون مقاومة كبيرة، مستفيدين من تفكك الجبهة القوطية إذ يشير ابن القوطية إلى أن بعض زعمائهم مالوا إلى مهادنة المسلمين لما كان بينهم من الاختلاف في أمر الملك³، ويؤكد ابن الخطيب أن دولة القوط قد وهنت أركانها وتنازع أهلها الملك، فتهيأت البلاد لقبول الغالب⁴.

وتعزز الفتح بوصول موسى بن نصير سنة 93هـ/712م، حيث وسّع نطاق العمليات العسكرية وفتح مدناً كبرى، ثم التقى بطارق لاستكمال إخضاع البلاد، وقد وصف ابن حيان ذلك بقوله: "فلما قدم موسى بن نصير الأندلس أعمل الجيوش في نواحيها، فافتتحت البلاد مدينة بعد مدينة حتى دانت له معظم أعمالها"⁵، وامتد النفوذ الإسلامي نحو الشمال الشرقي حتى بلغ سرقسطة وبرشلونة وتجاوز جبال البرانس،

قرطبة الذي كان غيطة قد عاقبه على ثورته عليه بسم عينيه» محمود شيت خطاب، قادة فتح الأندلس، منار للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، ج1، ص132.

¹ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص15.

² ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1390هـ، ج1، ص42.

³ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1994م، ص95. ص52.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م، ج1، ص90.

⁵ ابن حيان المقتبس، مصدر سابق، ج1، ص60.

كما يذكر المقري: "وامتد سلطان المسلمين في الأندلس حتى جاوز الثغور إلى جبال البرانس"¹، لتصبح الأندلس ولاية واسعة مرتبطة بإفريقية ضمن الدولة الأموية².

ومع استقرار الفتح، شرع المسلمون في تنظيم الإدارة وإقرار سياسة قائمة على الإبقاء على أوضاع السكان المحليين مقابل الخضوع للسلطة، وهو ما عبّر عنه ابن الخطيب بقوله: "فأقرّ المسلمون أهل البلاد على أملاكهم وأحوالهم، وأجروا عليهم سنن العدل والسياسة"³، مما ساهم في الحد من الاضطرابات غير أن هذه المرحلة لم تخلُ من توترات، إذ شهدت الأندلس صراعات قبلية بين العرب وتوترات مع البربر وتأثرت بثورة البربر في المغرب، حيث يشير ابن حيان إلى أن "اضطرب أمر الأندلس حين قامت ثورة البربر بالمغرب، وظهرت آثارها في الجند والقبائل"⁴.

واستمر هذا الوضع حتى سنة 138هـ/756م مع قدوم عبد الرحمن الداخل، الذي استطاع توحيد الأندلس وتأسيس إمارة أموية مستقلة، منهيًا مرحلة الولاة إذ يصف ابن حيان ذلك بقوله: "فكانت قدمة عبد الرحمن بالأندلس فتحًا جديدًا لها، إذ اجتمعت به الكلمة بعد الفرقة"⁵، ويؤكد ابن الخطيب أن "فانتقلت الأندلس بقدومه من حال الاضطراب إلى نظام الملك واستقامة السلطان"⁶، وهكذا مثّلت الفترة الممتدة بين 92هـ و138هـ مرحلة تأسيسية انتقل فيها الحكم من القوط إلى المسلمين وتكوّنت خلالها البنية السياسية والعسكرية التي قامت عليها الدولة الأموية في الأندلس لاحقًا⁷.

¹ المقري، فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج1، ص 210.

² محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1997م، ج1، ص 95-110.

³ ابن الخطيب، مصدر سابق، ج1، ص 102.

⁴ ابن حيان المقتبس، مصدر سابق، ج1، ص 115.

⁵ نفسه، ج2، ص 5.

⁶ ابن الخطيب، مصدر سابق، ج1، ص 120.

⁷ عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، 1997م، ص 60-75.

المطلب الثاني: قيام الدولة الأموية في الأندلس ودورها العسكري (138-422هـ)
 مثل قيام الدولة الأموية في الأندلس سنة 138هـ/756م نقطة تحول حاسمة، إذ تمكن عبد الرحمن الداخل من إعادة بناء سلطة مركزية قوية بعد انهيار الحكم الأموي في المشرق، مستفيداً من حالة الانقسام السياسي والصراع القبلي بين القيسية واليمينية، إضافة إلى التوترات بين العرب والبربر.¹ وقد نجح في دخول قرطبة وإعلان إمارة مستقلة، ثم واجه سلسلة من الثورات والتمردات في إشبيلية وطليطلة وسرقسطة، غير أنه استطاع احتواءها تدريجياً، كما تصف المصادر ذلك بقولها: "فلم يزل عبد الرحمن يداوي تلك الفتن بالحزم والدهاء حتى استقامت له الأندلس، واجتمعت الكلمة بعد الفرقة، وسكنت الفتن بعد الاضطراب"²، ويؤكد ابن حيان: "فاستقرت له قرطبة دار ملكه، وأخذ في إحكام أمر الجند وتقويم أحوال الرعية، حتى دانت له البلاد بعد اضطرابها"³. وبذلك أصبح الجيش الركيزة الأساسية لاستقرار الدولة ومواجهة الأخطار الخارجية⁴.

واعتمد الأمويون على جيش منظم متعدد العناصر، ضم العرب الذين احتفظوا بالمواقع القيادية، إلى جانب البربر والموالدين، في محاولة للحد من العصبية القبلية⁵، ومع تطور الدولة ظهر عنصر الصقالبة الذين أصبحوا قوة عسكرية مهمة داخل البلاط، إذ يذكر ابن حيان: "وكان للصقالبة في قصور بني أمية شأن عظيم، يعتمد عليهم الخلفاء في حراسة الملك وخدمة الدولة، لما عُرف عنهم من الضبط والطاعة"⁶، ويصف ابن الخطيب دقة تنظيم الجيش بقوله: "وكانت عساكر بني أمية بالأندلس

¹ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص5-15.

² نفسه، ص20.

³ ابن حيان القرطبي، مصدر سابق، ج2، ص110.

⁴ ابن القوطية، مصدر سابق، ص95.

⁵ حسين مؤنس، فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، 2002م، ص234.

⁶ ابن حيان، مصدر سابق، ج2، ص148.

محكمة النظام، مضبوطة الديوان، يجرى لهم العطاء وتُحفظ أسماؤهم في سجلات الدولة¹. وقد ساهم هذا التنظيم في تعزيز قوة الجيش، حتى وصفه المقرئ بقوله: "وكانت عساكر بني أمية بالأندلس من أعظم عساكر الإسلام نظاماً وعدة، لكثرة عددها وحسن تدبيرها"².

وفي إطار الاستراتيجية العسكرية اعتمدت الدولة نظام الثغور، فُقُسمت الحدود الشمالية إلى ثغور عليا ووسطى ودنيا، شكّلت خط الدفاع الأول وقاعدة للعمليات العسكرية ضد الممالك النصرانية³. وقد اعتمد الأمويون سياسة الغزوات الموسمية، حيث يذكر ابن عذارى: "وكان أمراء بني أمية يسيرون الجيوش في كل عام إلى بلاد العدو، صائفة بعد صائفة، حتى لا يدعوا لهم فرصة للاستقواء"⁴، ويؤكد ابن حيان: «لم تخلُ سنة بني أمية من غزوة في سبيل الله، يبعثون الجيوش إلى الثغور، يحمون بها حوزة الإسلام ويكفون بها العدو»⁵، وهو ما حافظ على توازن عسكري طويل مع القوى النصرانية⁶.

وبلغت الدولة الأموية ذروة قوتها في عهد عبد الرحمن الناصر، الذي أعاد توحيد الأندلس وأعلن الخلافة سنة 316هـ، وعمل على تقوية الجيش والأسطول، مما مكّنه من مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية⁷. وقد وصف ابن خلدون هذه المرحلة بقوله: "وعظم سلطان الناصر بالأندلس، واستقل ملكه، وصارت له الهيبة في جميع

¹ ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 120.

² المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج1، ص 250.

³ عبد الرحمن علي الحجى، مصدر سابق، ص 150-155.

⁴ ابن عذارى، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج2، ص 120.

⁵ ابن حيان، مصدر سابق، ج3، ص 55.

⁶ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر، بيروت، 2000م، ج6، ص324.

⁷ حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، دار الرشاد، القاهرة، 1985م، ص 112.

نواحيها، واستقام له أمر الثغور والجند"¹، كما يؤكد ابن الخطيب: "وكانت قرطبة يومئذ حاضرة الدنيا، تضرب إليها أكباد الإبل، ويقوم بها من الجند والعدة ما لم يجتمع لملك بالأندلس قبلها"². واستمرت هذه القوة في عهد الحكم المستنصر، ثم بلغت ذروتها العسكرية في عصر الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي قاد حملات متواصلة حتى قيل إنه "لم يُهزم له جيش في غزوة"³، غير أن هذا التفوق كان مرتبطاً بوجود سلطة مركزية قوية، سرعان ما انهارت مع اندلاع الفتنة الكبرى⁴.

وأدى سقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ إلى تفكك الأندلس إلى دويلات الطوائف، مما أضعف قدرتها العسكرية وأشغلتها بصراعات داخلية⁵. ويصف ابن الخطيب هذا الوضع بقوله: "تقطعت الأندلس بعد بني أمية دولاً، وصار كل قطر منها إلى صاحب، فضعفت الشوكة وتجراً العدو"⁶، كما يذكر ابن بسام: "وتفرقت كلمة المسلمين بالأندلس، وصار كل أمير منهم يطلب الغلبة لصاحبه، حتى استظهر عليهم العدو واستطال"⁷. واستغلت الممالك النصرانية هذا الضعف، فوسعت نفوذها حتى سقطت طليطلة سنة 478هـ، مما دفع ملوك الطوائف إلى الاستعانة بالمرابطين، فحققوا

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 322.

² ابن الخطيب، مصدر سابق، ج1، ص 135.

³ ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979م، ج1، ص 70.

⁴ المقري، فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1900، ج1، ص 300.

⁵ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 5، 1997م، ج2، ص 30.

⁶ ابن الخطيب، مصدر سابق، ج1، ص 210.

⁷ ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981، ج1، ص 85.

نصر الزلافة سنة 479هـ، قبل أن يتجدد التراجع لاحقاً وينتهي بهزيمة كبرى في حصن العقاب سنة 609هـ، التي فتحت الطريق أمام التوسع النصراني في عمق الأندلس¹.

المبحث الثاني: عصر ملوك الطوائف وتداعيات الانقسام (422-479هـ)

يمثل عصر ملوك الطوائف مرحلة مفصلية اتسمت بتفكك السلطة المركزية في الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ/1031م، حيث تحولت البلاد إلى دويلات متنازعة فقدت القدرة على التنسيق العسكري. وقد جاءت هذه النتيجة حصيلة اضطرابات متراكمة بلغت ذروتها في الفتنة الكبرى التي أنهت وحدة الدولة، كما عبّر ابن حيان عن ذلك بقوله: "وكانت الفتنة بالأندلس بلاءً عظيماً فرّق الجماعة، وأضعف الدولة، وأطمع العدو، حتى صارت البلاد أيدياً متفرقة بعد أن كانت كلمة واحدة"². وأدى هذا الانقسام إلى إضعاف البنية العسكرية، إذ أصبحت الجيوش موزعة بين إمارات متنافسة، وانشغلت بالصراع الداخلي بدل مواجهة الخطر الخارجي، مما سمح للممالك النصرانية بتوسيع نفوذها تدريجياً، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م، وهو حدث كشف عمق الأزمة العسكرية التي بلغت الأندلس³. وفي ظل هذا التدهور، برزت دعوات للاستعانة بقوة خارجية، فكان تدخل المرابطين بداية مرحلة جديدة أعادت مؤقتاً التوازن العسكري⁴.

المطلب الأول: أسباب سقوط الدولة المركزية وظهور الطوائف

لم يكن سقوط الخلافة الأموية حدثاً مفاجئاً، بل نتيجة تراكم أزمات سياسية وعسكرية واجتماعية أدت إلى تفكك السلطة المركزية. وقد أسهمت الفتنة الكبرى في تسريع هذا الانهيار، حيث تلاشت قدرة الدولة على ضبط التوازنات الداخلية، وبرزت

¹ عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، 1981، ص 220-230.

² ابن حيان، مصدر سابق، ج5، ص 110.

³ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان، (دت)، ص 312.

⁴ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 280.

قوى محلية ملأت الفراغ السياسي¹. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن هذا التحول يعكس انتقال الأندلس من نموذج الدولة المركزية إلى نمط الإمارات الإقليمية المتنافسة، وهو ما انعكس مباشرة على ضعف القدرة العسكرية العامة.

1- الصراع داخل البلاط العامري بعد وفاة المنصور بن أبي عامر شهدت أواخر القرن الرابع الهجري تحولاً في بنية السلطة مع صعود الحجاب من بني أبي عامر، حيث أصبحت السلطة الفعلية في أيديهم، خاصة في عهد المنصور الذي عزز قوة الدولة عسكرياً، كما يذكر ابن عذاري: "كان المنصور شديد الهيبة، نافذ الأمر، لم يزل يجاهد العدو ويغزوهم في كل عام حتى دانت له البلاد واستقرت الدولة"². غير أن هذا التوازن كان مرتبطاً بشخصه، فلما توفي وورث أبناؤه الحكم، تفجرت الصراعات داخل البلاط، خاصة بعد محاولة شنجول الاستئثار بالسلطة، مما أدى إلى بداية الفتنة. ويصف ابن حيان ذلك بقوله: "فلما هلك عبد الملك اضطرب أمر الدولة، وتنازعت العصبيات، وانحل النظام الذي كان يجمع أهل الأندلس في طاعة واحدة"³.

2- ضعف الخلفاء الأمويين المتأخرين وتعدد الخلع والبيعة أدى تراجع دور الخلفاء إلى فقدان مؤسسة الخلافة فعاليتها السياسية، ومع اندلاع الفتنة أصبحت عاجزة عن ضبط الأوضاع، فشهدت قرطبة تعاقباً سريعاً للخلفاء، مما أضعف هيبة الحكم. وقد لخص ابن خلدون هذا الوضع بقوله: "تتابعت الفتن بالأندلس وكثرت فيها الدعوات والبيعات، فصار الخليفة يقام ويخلع في أيام يسيرة، حتى ذهب هيبة الملك واضطرب أمر الدولة"⁴.

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، ج4، ص 136.

² ابن عذاري، مصدر سابق، ج2، ص 245.

³ ابن حيان، مصدر سابق، ج5، ص 118.

⁴ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 136.

3- تعاضم نفوذ الصقالبة والقبائل العسكرية مع ضعف الدولة برزت القوى العسكرية بوصفها فاعلاً مستقلاً، خاصة الصقالبة الذين سيطر بعض قادتهم على مدن استراتيجية، إلى جانب العصابات القبلية العربية والبربرية. وقد أدى هذا التعدد في مراكز القوة إلى تعميق الانقسام، كما يشير المقري: "وتفرقت الكلمة بالأندلس بعد الفتنة، واستبد كل أمير بما قدر عليه من البلاد"¹.

4- انهيار الجيش النظامي للدولة كان الجيش النظامي عماد الدولة الأموية، لكن الفتنة أدت إلى تفككه وانقسامه بين القوى المتصارعة، كما تراجعت الموارد المالية اللازمة لتمويله. ونتيجة لذلك فقدت الدولة قدرتها على فرض السيطرة، وتحول القادة العسكريون إلى حكام محليين، مما مهّد لظهور إمارات الطوائف².

5- ظهور إمارات الطوائف أدى سقوط الخلافة إلى ظهور دويلات مستقلة تجاوز عددها الثلاثين، من أبرزها:

- **إمارة بني عباد في إشبيلية**: برزت كأقوى دول الطوائف، إذ تمكنت من توسيع نفوذها في جنوب الأندلس، ويذكر محمد عبد الله عنان أنها "أصبحت في القرن الخامس الهجري أقوى دول الطوائف سياسياً وعسكرياً"³.
- **إمارة بني ذي النون في طليطلة**: استقادت من موقعها الاستراتيجي، لكنها سقطت أمام ضغط الممالك النصرانية سنة 478هـ، في حدث مثل تحولاً عسكرياً خطيراً.

¹ المقري، مصدر سابق، ج1، ص 364.

² حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 285.

³ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997، ج1، ص 430.

• إمارة بني الأفتس في بطليوس :اتسمت بطابعها الحدودي واعتمادها على التحالفات لمواجهة الضغط النصراني¹ .

• إمارة بني جهور في قرطبة :مثلت تجربة سياسية مختلفة قائمة على حكم جماعي، لكنها لم تصمد أمام الصراعات الداخلية² .

ويظهر من خلال هذه المرحلة أن تفكك السلطة المركزية أدى إلى إضعاف القوة العسكرية للمسلمين، وفتح المجال أمام التوسع النصراني، وهو ما جعل الأندلس تدخل طورًا جديدًا من الصراع غير المتكافئ.

المطلب الثاني: تفكك القوة العسكرية الإسلامية في عصر الطوائف

أدى سقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ/1031م إلى تحول جذري في البنية العسكرية بالأندلس، إذ انهار النظام العسكري الموحد الذي كان يخضع لسلطة مركزية في قرطبة، وحلّت محله قوى متفرقة تتبع إمارات متنافسة، مما أضعف القدرة الدفاعية العامة وفتح المجال أمام تصاعد الضغط النصراني من الشمال. وقد أشار حسين مؤنس إلى هذا التحول بقوله إن الأندلس "فقدت وحدتها العسكرية التي كانت تشكل أساس قوتها في مواجهة الممالك النصرانية"³، وهو ما يعكس انتقالها من قوة منظمة إلى حالة تفكك عسكري واضح.

أولاً: غياب الجيش الموحد

كان الجيش في العصر الأموي جهازًا منظمًا يقوم على موارد مالية وإدارية ثابتة، غير أن انهيار الخلافة أدى إلى تفككه وتحوله إلى جيوش محلية صغيرة تابعة لأمراء الطوائف، دون وجود قيادة مركزية توحد جهودها. وقد ترتب على ذلك غياب

¹ عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، ص 170.

² ابن بسام، مصدر سابق، ج1، ص 90.

³ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 284.

استراتيجية عسكرية مشتركة، وتحول الصراع إلى حروب داخلية استنزفت الموارد. ويصف محمد عبد الله عنان هذا الوضع بقوله:

لم تعد الأندلس بعد سقوط الخلافة دولة واحدة، بل أصبحت مجموعة من الإمارات المتنافسة، لكل منها جيشها وسياستها الخاصة، الأمر الذي أضعف القدرة العسكرية للمسلمين¹.

وهكذا فقدت الأندلس قدرتها على تعبئة قواتها العسكرية في مواجهة الأخطار الخارجية.

ثانيًا: انتشار المرتزقة النصراني داخل جيوش الطوائف

في ظل ضعف الجيوش المحلية، لجأ أمراء الطوائف إلى الاستعانة بالمرتزقة النصراني لتدعيم قواتهم، خاصة من قشتالة وليون، وهو ما أدخل عنصرًا جديدًا في موازين القوى داخل الأندلس. وقد خدم بعض القادة النصرانيين، مثل رودريغو دياز (السيد)²، في جيوش مسلمة، مما يعكس طبيعة التحالفات المتقلبة في تلك المرحلة. وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الظاهرة بقوله: "صار ملوك الطوائف يستعينون بالنصراني على بعضهم، فيقاتلون معهم ويستظهرون بهم على مخالفيهم"³. وقد أدى ذلك إلى تمكين القوى النصرانية من التعرف على أوضاع الأندلس العسكرية واكتساب خبرة ميدانية داخل أراضيها.

ثالثًا: اعتماد سياسة الموالاتة والجزية تجاه القوى النصرانية

¹ محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج1، ص 435.

² السيد، هو فارس قشتالي، واسمه الأصلي رودريجو أو روي دياث دي بيبار (Rodrigo Diaz de Vivar)، أما تلقبه "بالسيد El Cid" فهو تحريف لكلمة "السيد" العربية، وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم، ويحارب معهم، وأما وصفه بالكمبيادور، El Campeador، فمعناها المحارب الباسل، من مواليد قرية فيفار، قرب مدينة بُرغش (Burgos) عاصمة قشتالة. محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج2، ص 232.

³ ابن خلدون، مصدر سابق، ج4، ص 138.

من أبرز مظاهر الضعف العسكري لجوء ملوك الطوائف إلى إقامة علاقات تبعية مع الممالك النصرانية، تمثلت في دفع الجزية السنوية (الباريات)¹ مقابل الحماية أو تجنب الغزو. وقد شكّلت هذه السياسة استنزافاً اقتصادياً مباشراً، كما أسهمت في تقوية خصومهم. ويذكر السيد عبد العزيز سالم أن هذه الجزية "أسهمت في تقوية الممالك النصرانية اقتصادياً وعسكرياً على حساب دول الطوائف"²، كما يصف المقرئ هذا الوضع بقوله: "بلغ الضعف بملوك الطوائف أن صاروا يؤدون الأموال العظيمة لملوك النصارى اتقاءً لشرهم واستعانة بهم على مخالفتهم"³. وبذلك تحولت العلاقة من صراع متكافئ إلى تبعية سياسية وعسكرية.

رابعاً: تصاعد الضغط العسكري من قشتالة وليون وأراغون

استغلت الممالك النصرانية حالة الانقسام، فوسعت نفوذها تدريجياً نحو الجنوب، مستفيدة من ضعف التنسيق بين الإمارات الإسلامية. وقد برزت قشتالة وليون وأراغون كقوى رئيسية قادت هذا التوسع، الذي توجّ بسقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م، وهو حدث مثل تحولاً حاسماً في ميزان القوى. وقد وصف ابن عذاري هذه النكبة بقوله: "كان من أعظم المصائب التي نزلت بالمسلمين في الأندلس"⁴. وقد دفع هذا التطور أمراء الطوائف إلى إدراك خطورة الوضع، فاستنجدوا بالمرابطين، مما مهّد لتدخلهم وانتصارهم في الزلاقة سنة 479هـ.

1 ضريبة الباريا (Paria) تشير إلى ضرائب الحماية أو الإتاوات التي كانت تدفعها إمارات "ملوك الطوائف" في الأندلس للممالك المسيحية لقاء الحماية بما يشبه الجزية. انظر: بو الصوف فضيل، ضريبة الباريا Paria في الأندلس في عصر ملوك الطوائف خلال القرن 5 هـ 11 م، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 20 ص 521.

2 السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 318.

3 المقرئ، مصدر سابق، ج1، ص 370.

4 ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، ج3، ص 40.

يتضح أن تفكك الدولة الأموية أدى إلى انهيار النظام العسكري الموحد، فظهرت جيوش محلية متنازعة، وانتشرت ظاهرة الاستعانة بالمرتزقة، وتكرست سياسة دفع الجزية، وهو ما أضعف القدرة الدفاعية للأندلس وأتاح للممالك النصرانية تحقيق تقدم مستمر. وقد مثلت هذه العوامل مجتمعة الخلفية المباشرة لتحول ميزان القوى في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال هذه المرحلة.

المطلب الثالث: نتائج الانقسام السياسي والعسكري وأثره على المعارك اللاحقة

أدى الانقسام السياسي والعسكري الذي أعقب سقوط الخلافة الأموية إلى إضعاف عميق في القدرة القتالية للأندلس، إذ فقدت الإمارات الإسلامية إمكانية التنسيق العسكري، وأصبحت عاجزة عن مواجهة التوسع المتصاعد للممالك النصرانية. وفي ظل هذا التراجع برزت الحاجة إلى قوة خارجية تعيد التوازن، وهو ما مهد لتدخل القوى المغاربية، خاصة المرابطين ثم الموحيدين، الذين لعبوا دورًا حاسمًا في توحيد الجبهة الإسلامية مؤقتًا. ويشير محمد عبد الله عنان إلى هذه الحالة بقوله: "ضعف دول الطوائف وانقسامها جعل الأندلس غير قادرة على الدفاع عن نفسها، الأمر الذي اضطر أمراءها إلى طلب العون من القوى المغاربية"¹، وهو ما يعكس انتقال مركز الثقل العسكري من الأندلس إلى المغرب الإسلامي.

1- الحاجة إلى قوة خارجية لإعادة التوازن

أدى سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م إلى كشف العجز العسكري لإمارات الطوائف، إذ كانت المدينة تمثل موقعًا استراتيجيًا مهمًا في قلب الأندلس، وسقوطها أظهر غياب التنسيق العسكري بين الإمارات. وقد نتج عن ذلك شعور عام بالخطر دفع بعض الحكام، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، إلى طلب العون من المرابطين. ويصف ابن عذاري هذا التحول بقوله: "لما اشتد أمر النصارى بالأندلس وخاف

¹ محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ط5، ج1، ص 440.

المسلمون استيلاءهم على البلاد، راسل المعتمد بن عباد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين يستنصره¹. وقد شكّل هذا القرار بداية تدخل مباشر للقوى المغاربية في الصراع الأندلسي.

2- دور المرابطين في إعادة توحيد الجبهة الإسلامية

دخل المرابطون الأندلس سنة 479هـ/1086م بقيادة يوسف بن تاشفين، وتمكنوا من توحيد قوات المسلمين من المغرب والأندلس تحت قيادة واحدة، وهو ما أدى إلى تحقيق نصر حاسم في معركة الزلاقة. وقد وصف ابن خلدون هذه المعركة بقوله: "كانت وقعة الزلاقة من أعظم الوقائع، انكسر فيها جموع النصارى كسرة عظيمة، وردّ الله بها بأسهم عن المسلمين".

وقد أبرز هذا الانتصار أثر وحدة القيادة العسكرية في تحقيق التفوق، إذ أوقف التوسع النصراني وأعاد التوازن العسكري لفترة من الزمن، كما مهّد لسيطرة المرابطين على الأندلس وإلغاء حكم الطوائف تدريجياً².

3- استمرار دور الوحدة العسكرية في عهد الموحيدين

بعد ضعف المرابطين، ظهرت دولة الموحيدين التي أعادت توحيد المغرب والأندلس، وواصلت سياسة الجهاد ضد الممالك النصرانية. وقد بلغت هذه الجهود ذروتها في معركة الأرك سنة 591هـ/1195م بقيادة الخليفة يعقوب المنصور، حيث حقق المسلمون انتصاراً كبيراً. ويذكر ابن عذاري في وصفها: "كانت وقعة الأرك فتحاً عظيماً للمسلمين، انهزم فيها ملك قشتالة هزيمة شديدة"³.

¹ ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، ج3، ص 55.

² حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص305.

³ ابن عذاري، مصدر سابق، ج3، ص 110.

وقد أكد هذا الانتصار مجددًا أن وحدة القرار السياسي والعسكري كانت أساس القوة الإسلامية في تلك المرحلة، وأن التفوق العسكري كان مرتبطًا بوجود سلطة مركزية قوية¹.

4- عودة التفكك ونتائجه في معركة حصن العقاب

لم تستمر هذه الوحدة، إذ دخلت دولة الموحدين في أواخر عهدها مرحلة من الضعف نتيجة الصراعات الداخلية، مما أثر على قدرتها العسكرية في الأندلس. وقد استغلت الممالك النصرانية هذا التراجع، وشكّلت تحالفًا عسكريًا واسعًا واجه المسلمين في معركة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م.

وقد انتهت المعركة بهزيمة قاسية للمسلمين، وصفها ابن خلدون بقوله: "كانت وقعة العقاب من أعظم المصائب على المسلمين بالأندلس، انكسرت فيها شوكتهم وفتح الطريق للنصارى إلى بلادهم"². وقد مثّلت هذه الهزيمة نقطة تحول حاسمة، إذ فتحت الطريق أمام التوسع النصراني في عمق الأندلس وتسارع سقوط المدن الإسلامية³.

إن الانقسام السياسي في عصر الطوائف كان عاملاً حاسماً في إضعاف القدرة العسكرية للمسلمين، مما اضطرهم إلى الاستعانة بقوى مغربية أعادت التوازن مؤقتاً. وقد أثبتت معركتا الزلاقة والأرك أن وحدة القيادة العسكرية كانت أساس الانتصار، في حين كشفت هزيمة حصن العقاب أن عودة التفكك تؤدي إلى نتائج كارثية. وهكذا ارتبط مسار الصراع في الأندلس بمدى قدرة المسلمين على الحفاظ على وحدة سياسية وعسكرية في مواجهة القوى النصرانية المتنامية.

¹ السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 340-345.

² ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 312.

³ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 305.

المبحث الثالث: دور الدول المغربية في إعادة التوازن للأندلس

المطلب الأول: المرابطون ووحدة القوة (479-541هـ)

شهدت الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري مرحلة حاسمة في تاريخها السياسي والعسكري، إذ أدى ضعف دول الطوائف وتزايد الضغط العسكري من الممالك النصرانية إلى ظهور حاجة ملحة إلى قوة قادرة على إعادة التوازن إلى ميزان القوى في شبه الجزيرة الإيبيرية. وقد جاءت هذه القوة من المغرب الأقصى، حيث ظهرت دولة المرابطين¹ بوصفها حركة إصلاح ديني وسياسي تحولت سريعاً إلى قوة عسكرية كبرى لعبت دوراً حاسماً في إنقاذ الأندلس من الانهيار.

وقد تأسست حركة المرابطين في الصحراء المغربية خلال منتصف القرن الخامس الهجري على أساس دعوة دينية إصلاحية قادها عبد الله بن ياسين² هدفت إلى نشر الالتزام الديني وتعزيز وحدة المسلمين. وكان من أبرز قادتها يوسف بن تاشفين الذي استطاع توحيد القبائل الصنهاجية في المغرب الأقصى وبناء دولة قوية ذات تنظيم سياسي وعسكري متماسك. وقد تحولت هذه الدولة خلال فترة قصيرة إلى قوة إقليمية كبرى امتد نفوذها من الصحراء الكبرى إلى شمال المغرب.

وقد تزامن صعود المرابطين مع اشتداد الخطر النصراني على الأندلس، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م بيد الملك القشتالي ألفونسو السادس. وقد مثل هذا الحدث صدمة كبيرة للعالم الإسلامي في الأندلس، إذ كشف مدى ضعف إمارات الطوائف وعدم قدرتها على الدفاع عن البلاد. ولذلك لجأ بعض أمراء الطوائف، وعلى

¹ المرابطون من قبيلة لمتونة، ولمتونة بطن من بطون صنهاجة أكبر وأعظم القبائل الديرية وهي فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى، ساهم بالمرابطين عبد الله بن ياسين لالتزامهم رابطته كما يعرفون أيضاً بالملثمين، وتبدأ الدولة المرابطية أو اللمتونية بقيام أبي بكر بن عمر اللمتوني 447هـ. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص/120، عنان، مرجع سابق، ج2، ص 308.

² عبد الله بن ياسين: الفقيه ابو محمد عبد الله بن ياسين الجزولي المصمودي الزعيم الأول للمرابطين وجامع شملهم وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، قتل في سنة 451هـ. الزركلي، الاعلام، 144/4.

رأسهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، إلى طلب المساعدة من يوسف بن تاشفين. قد أشار المؤرخ ابن عذاري إلى هذا الحدث بقوله:

"فلما اشتد أمر النصارى واستفحل خطرهم بالأندلس، استنجد المعتمد بن عباد بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين، فلبى الدعوة وعبر البحر إلى الأندلس"¹. وقد استجاب يوسف بن تاشفين لهذه الدعوة، فعبر بجيشه إلى الأندلس سنة 479هـ/1086م، وهو الحدث الذي سيقود إلى واحدة من أهم المعارك في تاريخ الصراع الإسلامي النصراني في شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي معركة الزلاقة.

أولاً: معركة الزلاقة وإعادة التوازن العسكري

تعد معركة الزلاقة التي وقعت سنة 479هـ/1086م نقطة تحول مهمة في تاريخ الأندلس. فقد استطاع المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين أن يوحدوا قوات المسلمين القادمة من المغرب مع جيوش بعض أمراء الطوائف في مواجهة جيش قشتالة بقيادة ألفونسو السادس.

وقد انتهت المعركة بانتصار كبير للمسلمين، إذ تكبد الجيش القشتالي خسائر فادحة واضطر ملك قشتالة إلى الانسحاب من ساحة القتال. وقد أوقف هذا الانتصار التوسع النصراني في الأندلس لفترة طويلة. وقد وصف المؤرخ ابن خلدون هذه المعركة بقوله: "وكانت وقعة الزلاقة من أعظم الوقائع، كسر الله بها شوكة النصارى ورد بأسهم عن المسلمين بالأندلس"².

كما يشير المؤرخون إلى أن هذا الانتصار لم يكن نتيجة التفوق العددي فقط، بل كان ثمرة التنظيم العسكري والانضباط الذي تميزت به قوات المرابطين مقارنة بجيوش الطوائف المتفرقة.

¹ ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، ج3، ص 60.

² ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 305.

ثانياً: ملامح القوة العسكرية للمرابطين

تميّزت الدولة المرابطية بعدد من الخصائص العسكرية والتنظيمية التي ساعدتها على تحقيق التفوق في ميدان القتال، ومن أبرز هذه الخصائص:

- الانضباط العسكري الصارم

اعتمد المرابطون على نظام عسكري شديد الانضباط يقوم على الطاعة المطلقة للقيادة. وقد كان هذا الانضباط نتيجة للتكوين الديني للحركة المرابطية التي جمعت بين الدعوة الدينية والتنظيم العسكري. وقد أشار حسين مؤنس إلى هذه الخاصية بقوله إن الجيش المرابطي "كان يتميز بدرجة عالية من التنظيم والانضباط، مما جعله قوة عسكرية فعالة في مواجهة الجيوش النصرانية"¹.

- العقيدة القتالية الدينية

اعتمدت الحركة المرابطية منذ بداياتها على تعبئة دينية قوية جعلت من القتال وسيلةً لنصرة الدين وإقامة شعائر الإسلام، ولذلك ارتبطت حروبهم بفكرة الجهاد التي كانت تُستخدم لتحفيز المقاتلين وبعث روح الحماسة في صفوفهم. وقد عمل الدعاة والفقهاء المرتبطون بالحركة على ترسيخ هذه الفكرة من خلال التذكير بثواب الله والترغيب في الجنة والتخويف من العقاب، الأمر الذي أسهم في تعزيز الانضباط داخل الجيش المرابطي وتقوية طاعة الجنود لقادتهم، وفي هذا السياق ورد أن عبد الله الجزولي عندما دعا أتباعه إلى القتال حثهم على التمسك بمبادئ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، مؤكداً أن ذلك من صميم رسالتهم الدينية². كما تُظهر الروايات التاريخية أن هذه الروح الدينية كانت حاضرة بقوة في خطاب قادة الحركة؛ إذ

¹ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 312.

² السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت 1315هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط4، ج3، ص143.

يُنقل عن عبد الله بن ياسين قوله لأتباعه بعد أن رأى صبرهم وثباتهم: "إنكم صبرتم ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فتحتم مكان ما أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم"، ثم أمرهم بالخروج إلى الجهاد¹، وهو خطاب يعكس بوضوح الدور المركزي الذي لعبته العقيدة الدينية في تعبئة المرابطين ودفعهم إلى مواصلة الفتح وتحقيق الانتصارات.

فقد كانت حركتهم في الأصل حركة إصلاح ديني تهدف إلى نشر الالتزام بالشريعة الإسلامية، ولذلك كان الجهاد ضد القوى النصرانية يُنظر إليه بوصفه واجباً دينياً، مما عزز قدرتهم على الصمود في المعارك.

- القيادة الموحدة الراشدة

من أهم عناصر قوة المرابطين وجود قيادة سياسية وعسكرية موحدة متمثلة في شخصية يوسف بن تاشفين الذي جمع بين الخبرة العسكرية والقدرة السياسية. وتميّزت القيادة العسكرية عندهم في قدرتها على تعبئة الجنود معنوياً ودينياً في ميادين القتال، فقد كان يوسف بن تاشفين يحرص على مشاركة جيشه في ساحة المعركة وتقوية عزائمهم، مما أسهم في رفع الروح القتالية وترسيخ روح الجهاد بين المقاتلين. ويذكر ابن أبي زرع الفاسي في وصفه لذلك: "كان أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين يمر بين ساقات المسلمين، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول: يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة"².

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: السيد البشير الفوي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، دون تاريخ، ص11.

² ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مطبعة فاس، 1345هـ، ج3، ص45.

-الجيش الصحراوي وقدرته على التحمل

تميّز الجيش المرابطي بطابع صحراوي واضح، إذ كان عماده من قبائل صنهاجة التي نشأت في بيئة قاسية أكسبتها قدرة استثنائية على التحمل والصبر. وقد انعكست هذه الخصائص على أدائهم في ميادين القتال، فكانوا أكثر صمودًا في المواجهات الطويلة وأقدر على التكيف مع الظروف الصعبة. ويشير ابن خلدون إلى هذه الطبيعة بقوله: "وكانت صنهاجة أهل صبر وجلد، قد ألفوا شطف العيش وخشونة البداوة، فاشتدّ بأسهم في الحروب"¹. وهو ما يفسر تفوقهم في عدد من المعارك الكبرى، حيث جمعوا بين القوة البدنية والانضباط الديني.

-التنظيم السياسي المركزي

ولم تكن قوة المرابطين مقتصرة على جانبهم العسكري، بل دعمتها بنية سياسية مركزية محكمة قامت على وحدة القيادة والطاعة الصارمة للأمير. فقد استطاع يوسف بن تاشفين أن يؤسس نظامًا سياسيًا قويًا مما مكّنه من توسيع نفوذ الدولة وإحكام السيطرة على الأقاليم، ويذكر ابن عذاري في هذا السياق: "فلم يزل يوسف بن تاشفين يقوّي سلطانه ويجمع الكلمة، حتى دانت له بلاد المغرب والأندلس"² وبهذا تمكن يوسف بن تاشفين بعد فترة من السيطرة المباشرة على الأندلس، حيث قام بضم إمارات الطوائف إلى الدولة المرابطية، مما أدى إلى إعادة توحيد جزء كبير من الأندلس تحت سلطة واحدة.

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 255.

² ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، ج4، ص 20.

ثالثًا: أسباب ضعف الدولة المرابطية

على الرغم من النجاحات العسكرية التي حققها المرابطون في الأندلس، فإن دولتهم بدأت تشهد مظاهر الضعف خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري. وقد كان هذا الضعف نتيجة عدد من العوامل السياسية والعسكرية.

-التوسع المفرط للدولة-

امتدت الدولة المرابطية على مساحة واسعة شملت المغرب الأقصى وجزءًا كبيرًا من الأندلس، مما أثقل كاهل الدولة إداريًا وعسكريًا. وقد أدى هذا الاتساع الجغرافي إلى صعوبة التحكم في الأطراف وضبط الأوضاع فيها، وزيادة الأعباء العسكرية والإدارية على الدول.. ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذا الامتداد "أضعف قدرة الدولة على الإشراف المباشر، وأرهق مواردها العسكرية"¹.

-ظهور حركة الموحدين المعارضة-

وفي خضم هذا الوضع برزت في المغرب حركة الموحدين بقيادة محمد بن تومرت، التي حملت مشروعًا دينيًا إصلاحيًا وانتقدت بشدة سياسة المرابطين، متهمة إياهم بمخالفة أصول العقيدة. ولم تلبث هذه الدعوة أن تحولت إلى قوة سياسية وعسكرية منظمة، استطاعت أن تستقطب الأنصار وتتنافس المرابطين على السلطة. ويصف ابن خلدون هذا التحول بقوله: "ثم ظهرت دعوة الموحدين فدعت إلى تغيير المنكر، واجتمع لها من القبائل خلق كثير، فاشتد أمرها وقوي سلطانها"²، الأمر الذي مهد لسقوط الدولة المرابطية لاحقًا وصعود قوة جديدة في المغرب والأندلس.

¹ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 320.

² ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 270.

-التوتر بين الفقهاء والسلطة

شهدت الدولة المرابطية أيضًا بعض التوترات بين الفقهاء الذين كانوا يشكلون أحد أعمدة الشرعية الدينية للدولة وبين السلطة السياسية والعسكرية. وقد أدى هذا التوتر إلى بعض الاضطرابات الفكرية والسياسية داخل الدولة. وقد أشار المؤرخ ابن الأثير إلى أن هذه العوامل مجتمعة "أضعفت دولة المرابطين ومهدت الطريق لظهور دولة الموحدين"¹.

يعود الفضل للمرابطين في الأندلس أنهم استطاعوا إعادة التوازن العسكري والسياسي بعد فترة طويلة من الضعف والانقسام خلال عصر الطوائف. فقد مكّن التنظيم العسكري الصارم والقيادة الموحدة يوسف بن تاشفين من تحقيق انتصار كبير في معركة الزلاقة وإيقاف التوسع النصراني لفترة مهمة. غير أن الدولة المرابطية لم تستطع الحفاظ على قوتها لفترة طويلة بسبب التوسع الجغرافي الكبير وظهور قوى معارضة في المغرب، وهو ما أدى في النهاية إلى سقوطها وظهور دولة الموحدين التي ستلعب بدورها دورًا مهمًا في تاريخ الأندلس.

¹ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، ج10، ص 112.

المطلب الثاني: الموحدون واستعادة المبادرة (541-609هـ)

شهد الغرب الإسلامي في منتصف القرن السادس الهجري ظهور قوة سياسية جديدة كان لها أثر بالغ في إعادة التوازن العسكري في الأندلس، وهي دولة الموحيدين . وقد نشأت هذه الدولة في المغرب الأقصى على أساس حركة دينية إصلاحية قادها محمد بن تومرت (ت 524هـ) الذي دعا إلى إصلاح العقيدة ومحاربة ما اعتبره انحرافات دينية في المجتمع. وبعد وفاته تولى قيادة الحركة تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي الذي نجح في تحويل الدعوة الدينية إلى دولة سياسية وعسكرية قوية¹.

وقد تمكن عبد المؤمن من توحيد معظم مناطق المغرب الإسلامي تحت سلطته بعد أن قضى على الدولة المرابطية سنة 541هـ/1147م، وبذلك أصبحت الدولة الموحدية تسيطر على مساحة واسعة امتدت من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن الصحراء جنوباً إلى الأندلس شمالاً. وقد أتاح هذا الاتساع الجغرافي للدولة الموحدية موارد بشرية واقتصادية كبيرة جعلتها واحدة من أقوى الدول الإسلامية في غرب البحر المتوسط خلال القرن السادس الهجري².

وقد أشار المؤرخ ابن خلدون إلى عظمة الدولة الموحدية بقوله: "استولت دولة الموحيدين على بلاد المغرب كافة، وامتد سلطانهم إلى الأندلس، فصار لهم من الملك ما لم يكن لغيرهم في تلك العصور"³.

¹ احمد شارف، العقيدة وتجلياتها السياسية في فكر ابن تومرت، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، مجلد 2، عدد 4، 2017، ص 169.

² نفسه، ص 170.

³ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 331.

وقد أدرك الموحدون منذ بداية حكمهم أن الحفاظ على الأندلس يمثل عنصرًا أساسيًا في توازن القوى في غرب البحر المتوسط، ولذلك عملوا على تعزيز وجودهم العسكري في شبه الجزيرة الإيبيرية وإعادة تنظيم الدفاعات الإسلامية هناك.¹

أولاً: إعادة تنظيم الجبهة الإسلامية في الأندلس

بعد سقوط الدولة المرابطية شهدت الأندلس حالة من الاضطراب السياسي والعسكري، الأمر الذي دفع الموحيدين إلى التدخل لإعادة فرض الاستقرار. وقد أرسل عبد المؤمن بن علي عدة حملات عسكرية إلى الأندلس بهدف تثبيت النفوذ الموحيدي وتنظيم الدفاعات الإسلامية في مواجهة الممالك النصرانية.

وقد استمرت هذه السياسة خلال عهد خلفائه، خاصة في عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ) الذي يعد من أبرز حكام الدولة الموحدية وأكثرهم تأثيرًا في تاريخ الأندلس. ففي عهده بلغت الدولة الموحدية ذروة قوتها السياسية والعسكرية.

وقد تمكن يعقوب المنصور من توحيد الجبهة الإسلامية وتنظيم الجيوش الموحدية بصورة فعالة، وهو ما أدى إلى تحقيق أحد أهم الانتصارات العسكرية للمسلمين في الأندلس خلال القرن السادس الهجري، وهو انتصار معركة الأرك سنة 591هـ/1195م.

وقد وصف ابن عذاري هذه المعركة بقوله: "كانت وقعة الأرك من أعظم الوقائع، انهزم فيها ملك قشتالة هزيمة شديدة، وعادت للمسلمين هيبتهم بالأندلس"².

¹ شنين رانيا، معافي سومية، معروف في سارة، المظاهر الاجتماعية في عصر ملوك الطوائف من خلال الأدب الأندلسي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر التاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2021-2022، ص 36.

² ابن عذاري، مصدر سابق، ج3، ص 230.

كما يشير ابن خلدون إلى أهمية هذه المعركة بقوله: "أوقع يعقوب المنصور بملك قشتالة وقعة عظيمة بالأرك، انكسر فيها النصارى كسرة شديدة"¹.

وقد مثل هذا الانتصار لحظة مهمة في تاريخ الأندلس، إذ أعاد للمسلمين زمام المبادرة العسكرية بعد سنوات من التراجع أمام الممالك النصرانية.

ثانياً: عوامل القوة العسكرية والسياسية للدولة الموحدية

لم يكن الانتصار الذي تحقق في معركة الأرك وليد الصدفة، بل كان نتيجة مجموعة من العوامل التي ميزت الدولة الموحدية خلال فترة قوتها.

-الجيش الموحدى المنظم

اعتمد الموحدون على جيش كبير يتمتع بدرجة عالية من التنظيم والانضباط. وقد ضم هذا الجيش مقاتلين من قبائل المغرب إضافة إلى قوات الأندلس.

وقد أتاح هذا التنظيم العسكري للموحدين القدرة على حشد قوات كبيرة في المعارك الكبرى، وهو ما ساعدهم على تحقيق التفوق العسكري في مواجهة الجيوش النصرانية.

-القيادة السياسية القوية

تمتع الخلفاء الموحدون، وخاصة يعقوب المنصور، بقدرة قيادية كبيرة جمعت بين الكفاءة العسكرية والحزم السياسي. وقد ساعدت هذه القيادة على توحيد الجبهة الإسلامية وتنظيم الجيوش بصورة فعالة.

ويشير السلاوي إلى قوة شخصية يعقوب المنصور بقوله: "بلغت دولة الموحدين في أيام يعقوب المنصور غاية القوة والاتساع، واستقرت له بلاد المغرب والأندلس"².

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 342.

² السلاوي، مصدر سابق، ج2، ص 58.

-المركزية السياسية

تميزت الدولة الموحدية بنظام سياسي مركزي قوي جعل السلطة السياسية والعسكرية مركزة في يد الخليفة، وقد سمح ذلك بتوجيه الموارد العسكرية والاقتصادية بصورة أكثر فعالية مقارنة بما كان عليه الوضع في عصر الطوائف¹.

-التعبئة الدينية

استندت الدولة الموحدية إلى خطاب ديني قوي مستمد من دعوة ابن تومرت الإصلاحية. وقد لعب هذا البعد الديني دوراً مهماً في تعبئة الجيوش ورفع الروح المعنوية للمقاتلين.

-الموارد الاقتصادية

سيطرت الدولة الموحدية على طرق التجارة بين المغرب والأندلس، كما استفادت من ازدهار التجارة في موانئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وهو ما وفر لها موارد مالية كبيرة ساعدتها على تمويل الجيوش وتنظيم الحملات العسكرية.

ثالثاً: بداية تراجع الدولة الموحدية

على الرغم من القوة الكبيرة التي بلغتتها الدولة الموحدية في عهد يعقوب المنصور، فإن هذه القوة بدأت تتراجع بعد وفاته سنة 595هـ/1199م². فقد واجه خلفاؤه صعوبات سياسية وعسكرية عديدة أدت إلى إضعاف الدولة تدريجياً.

ومن أبرز مظاهر هذا التراجع:

¹ بن موسى محمد. عماري عبد الجبار، العوامل العقدية المؤثرة في سقوط الدولة الموحدية (ق 6هـ وق 7هـ / ق 12م وق 13م)، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مجلد 4، عدد 01، 2020، ص 627.

² هرياش زاجية، الصراع المرابطي الموحدية ببلاد المغرب الإسلام ثورة بني غاية انموذجا-، مجلة التراث، المجلد 01، العدد 01، 2014، ص 14.

- الصراعات السياسية داخل البيت الموحي
 - تراجع السيطرة على بعض مناطق المغرب
 - ازدياد الضغط العسكري من الممالك النصرانية في شمال شبه الجزيرة لإيبيرية
- وقد استغلت هذه الممالك حالة الضعف التي بدأت تظهر داخل الدولة الموحدية، فكوّنت تحالفًا عسكريًا واسعًا ضم قشتالة وأراغون ونافارًا.
- وقد واجهت الجيوش الإسلامية هذا التحالف في معركة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، وهي المعركة التي انتهت بهزيمة قاسية للمسلمين.
- وقد وصف ابن خلدون هذه الواقعة أنها كانت وقعة العقاب من أعظم المصائب التي نزلت بالمسلمين بالأندلس، إذ انكسرت فيها شوكتهم وفتح الطريق للنصارى إلى بلادهم¹.

من خلال ما سبق يتجلى دور الدولة الموحدية في الأندلس أنها استطاعت خلال فترة قصيرة إعادة المبادرة العسكرية للمسلمين بعد مرحلة من الضعف السياسي الذي أعقب سقوط المرابطين. فقد تمكنت الدولة الموحدية من توحيد المغرب والأندلس تحت سلطة مركزية قوية، كما حققت انتصارًا مهمًا في معركة الأرك أعاد التوازن العسكري في شبه الجزيرة الإيبيرية².

غير أن هذه القوة لم تستمر طويلًا، إذ أدت الصراعات الداخلية وتزايد الضغط العسكري من الممالك النصرانية إلى إضعاف الدولة الموحدية وانتهى الصراع الموحي

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 356.

² حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 320.

المرابطي بزوال المرابطين¹، وهو ما انتهى بالهزيمة الكبرى في معركة حصن العقاب التي شكلت نقطة تحول حاسمة في تاريخ الأندلس

¹ شارف احمد، السلطة والمجتمع بالأندلس في عصر المرابطين 479-539هـ - 1058-1144م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص159.

الفصل الثاني:

معارك النصر في تاريخ

المسلمين بالأندلس

المبحث الأول: معركة برباط (وادي لكّة) 92هـ / 711م

المطلب الأول: السياق السياسي والعسكري السابق للمعركة:

في السنوات التي سبقت المعركة، استطاع موسى بن نصير، والي إفريقية في الدولة الأموية، أن يحقق إنجازات كبيرة في توطيد الحكم الإسلامي في بلاد المغرب، حيث عمل على القضاء على الاضطرابات التي كانت تعم المنطقة، وأخضع القبائل والمناطق التي كانت تخرج عن سلطة الأمويين بين الحين والآخر، ولم يكتفِ بذلك بل وسّع نطاق نفوذ الدولة الأموية ليشمل مناطق جديدة لم تكن خاضعة لها من قبل، وكان من أبرزها مدينة طنجة، التي عيّن عليها قائده البارز طارق بن زياد¹ نظرًا لكفاءته وخبرته العسكرية، «وقد اتفق الجميع فيما يظهر على أن متولي كبر فتح الأندلس جلّه ومعظمه طارق بن زياد. وقد اختلف في نسبه، فالأكثر على أنه بربريٌّ من نفزة، وأنه مولى لموسى بن نصير، من سبي البربر. وقال آخرون: إنه فارسي.»²، وبذلك، لم يبق خارج السيطرة الأموية في المغرب الأقصى سوى مدينة سبتة، التي كانت تحت حكم حاكم محلي يُدعى يُوليان، وكانت تتمتع بموقع استراتيجي مهم على الضفة المقابلة لشبه الجزيرة الأيبيرية³.

وفي الجهة المقابلة من البحر كانت مملكة القوط الغربيين تعيش حالة من الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار حيث قام لذريق بالانقلاب على الملك غيطةشة واستولى على الحكم، بمبايعة من جماعة من كبار القوط وأعيانهم سنة 711م⁴، إلا أن سلطته لم تكن راسخة تمامًا، إذ ظل أنصار أبناء الملك المخلوع يشكلون معارضة قوية له في مناطق الشمال، مما أضعف

¹ يقول عبد العزيز سالم: «وأصح الآراء لدينا للرأي القائل بأنه كان بربرياً، إذ ذكروا أنه كان طويل القامة ضخم الهامة، أشقر اللون، وهي صفات تتوفر في شعب البربر، ثم إنه كان من المنطق أن يتول بربري قيادة جيش كله من البربر» تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان، ص 71.

² ابن العذاري، بيان المغرب، ج 2، مصدر سابق، ص 10.

³ عبد الله عنان، ج 1، ص 38.

⁴ نفسه، ص 33.

تماسك المملكة وجعلها عرضة للتهديدات الخارجية. وقد ساهم هذا الانقسام الداخلي في تهيئة الظروف المناسبة لتدخل خارجي.

وتذكر بعض المصادر الإسلامية أن بداية التفكير في غزو المسلمين لشبه الجزيرة الأيبيرية ارتبطت بدور يُوليان، حاكم سبته، ويذكر ذلك كولان بقوله: «واتخذ موسى هذه الخطوة نتيجة للوعود التي تلقاها من نائب الإمبراطور في مدينة سبته التي ظلت في حوزة البيزنطيين على الرغم من سقوط قرطاجة حديثاً في أيدي المسلمين. وسهل هذا النائب، وهو الكونت يوليان، للمسلمين النزول لأول مرة على أرض أسبانيا»¹ الذي كان على خلاف مع لذريق. وتروي هذه المصادر أن يُوليان أرسل ابنته إلى بلاط لذريق، كما جرت العادة لدى النبلاء في ذلك العصر، غير أن لذريق اعتدى عليها، مما أثار غضب يُوليان ودفعه إلى التفكير في الانتقام. فقام بعرض المساعدة على المسلمين²، سواء على موسى بن نصير أو طارق بن زياد، من خلال توفير السفن اللازمة لعبور البحر. ومع ذلك، يشكك بعض المؤرخين في صحة هذه الرواية، ويرون أنها قد تكون قصة أضيفت لاحقاً، خاصة وأن المسلمين كانوا يمتلكون بالفعل أسطولاً بحرياً في غرب البحر المتوسط، مما يعني أنهم لم يكونوا في حاجة ماسة لمثل هذه المساعدة³.

وعند عرض فكرة الغزو على الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، أبدى حذراً وحرصاً على سلامة الجند، فأمر موسى بن نصير بإرسال حملات استطلاعية صغيرة لاختبار الأوضاع في الضفة الأخرى قبل الشروع في حملة كبرى. واستجاب لذلك، أرسلت سرية بقيادة طريف بن مالك في رمضان سنة 91 هـ، وضمت عدداً محدوداً من الفرسان والمشاة، حيث

¹ كولان، الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1980، ص 108

² السلاوي، مصدر سابق، ج1، ص153

³ عنان، ج1، ص36

نزلت في منطقة عُرفت لاحقًا باسم جزيرة طريف. وقد حققت هذه الحملة نجاحًا أوليًا، وعادت بمعلومات مشجعة عن الأوضاع هناك¹.

وبعد نحو عام اتخذ القرار ببدء الغزو الفعلي، فعبر طارق بن زياد بجيش قوامه حوالي سبعة آلاف مقاتل، كان معظمهم من البربر الذين أسلموا حديثًا وأظهروا حماسة كبيرة، وذلك عبر المضيق الذي عُرف لاحقًا باسمه "جبل طارق". وبعد نزوله، قام بتنظيم قواته وبدأ في التقدم داخل الأراضي الأيبيرية، مستفيدًا من حالة الانقسام التي كانت تعيشها مملكة القوط.

وفي تلك الأثناء، كان لذريق منشغلًا بحملة عسكرية في شمال البلاد ضد المتمردين البشكنس²، لكن لما وصلت إليه أنباء تقدم طارق بن زياد لم يتهيب الموقف للمرة الأولى، لاعتقاده أن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات النهب، لن تلبث أن تتلاشى، ولكن حين وصلته أنباء تقدم المسلمين ناحية قرطبة، أسرع إلى طليطلة وحشد حشوده، وأرسل قوة عسكرية بقيادة ابن أخته بنشيو - وكان أكبر رجاله - للتصدي لهم، ووقع القتال بالقرب من الجزيرة الخضراء، فكانوا عند كل لقاء يُهزَمون، وقُتل قائدهم بنشو Bancho أو بنشيو Bencio، وفرَّ من نَجَا من جنوده في اتجاه الشمال؛ ليُخبروا لذريق بما جرى، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب، وسارع إلى التوجه جنوبًا لمواجهةهم³. ومع اقتراب المواجهة الحاسمة، أدرك طارق بن زياد خطورة الموقف، فطلب المدد من موسى بن نصير، الذي استجاب سريعًا وأمدّه بخمسة آلاف مقاتل إضافي، ليصبح الجيش الإسلامي أكثر استعدادًا لخوض المعركة التي ستحدد مصير المنطقة بأكمله⁴.

1 كولان، مرجع سابق، ص 108

2 البشكنس (Basques) وهم أمة عظيمة (٢)، سكان بلاد نافار (Navarra) التي كانت ببُلُونَة (Pamplona) عاصمة لها. وتقع نافار شرقي مملكة ليون محاذية لجبال البُرت التي تفصل بين إسبانيا وفرنسة. محمود شيت خطاب، مرجع سابق، ج 1، ص 99

3 محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، ط3، 2010. ص 37.

4 السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 74.

المطلب الثاني: سير المعركة ومجرياتها

تذكر المصادر العربية أن جمع في حالةٍ من الغرور والصلف جيشًا ضخمًا قُدِّر في بعض الروايات بنحو مائة ألف مقاتل¹، وزحف به من شمال شبه الجزيرة إلى جنوبها لملاقاة المسلمين. وفي المقابل كان طارق بن زياد في عددٍ قليل لا يتجاوز سبعة آلاف، جلهم من الرِّجَالَة، فاستشعر صعوبة المواجهة وطلب المدد من موسى بن نصير، فوافاه طريف بن مالك في خمسة آلاف مقاتل آخرين²، فصار مجموع الجيش الإسلامي اثني عشر ألفًا. عندئذٍ اتجه طارق إلى اختيار موضعٍ يحقق له أفضلية ميدانية، فاستقر رأيه على وادي برياط، المعروف أيضًا بوادي لكة أو شذونة، وقد اختلف في الموضع " فذكر البعض أنه هو نهر "جواداليتي" Guadalete (وادي لكة) الذي يصب في خليج قادس على مقربة من مدينة شريش، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالي مدينة شذونة. وذكر البعض الآخر، وهي الرواية الراجحة فيما يرى البحث الحديث، أن اللقاء قد حدث جنوبي بحيرة "خندة" Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتي Barbate الصغير³، حيث أحاطت به عناصر طبيعية حصينة؛ جبل من الخلف والميمنة، وبحيرة من الميسرة، وجعل في مؤخرته قوة بقيادة طريف بن مالك لتأمين ظهر الجيش ومنع المباغطة، فتهيات بذلك ساحة قتال تضيق فيها حركة العدو وتُحبط محاولات الالتفاف.

وفي مشهدٍ يعكس التفاوت النفسي بين الفريقين، أقبل لُذريق في هيئةٍ مترفة، مرتديًا التاج والثياب الموشاة بالذهب، جالسًا على سريرٍ يُحمل على البغال، وقد صحب معه حبالًا لتقييد المسلمين بعد هزيمتهم المفترضة.

¹ اختلفت تقديرات المؤرخين لعدد جيش لُذريق؛ فهي على أقل تقدير أربعون ألفًا؛ كما عند ابن خلدون في تاريخه 117/4، وعلى أعلى تقدير ستمائة ألف؛ كما هو عند الحِميري في الروض المعطار في خبر الأقطار ص35، وهي نحو مائة ألف كما عند المقرئ في نفح الطيب 257/1، وحسين مؤنس في فجر الأندلس ص70.

² المقرئ، مصدر سابق، ج1، 232

³ عنان، ج1، ص42

وفي الثامن والعشرين من رمضان سنة 92هـ/19 يوليو 711م التقى الجمعان، واندلعت معركةً عنيفة استمرت ثمانية أيام متواصلة، تكسرت فيها هجمات القوط على صمود المسلمين. وقد صور ابن عذاري شدة هذا القتال بقوله: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجالة، ليس فيهم راكب إلا القليل؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء»¹. وعلى امتداد هذه الأيام كانت الكفة تميل تدريجياً لصالح المسلمين، رغم الفارق العددي الكبير، إذ واجه جيش القوط اضطراباً داخلياً ساهم في إضعاف تماسكه، حيث عُرف عن بعض قادته الطموح إلى السلطة، الأمر الذي أفضى إلى تصدعات في صفوفه خلال لحظات الحسم. وقد ارتبطت هذه الاضطرابات بأحداثٍ سابقة داخل البيت القوطي، ولا سيما الصراع على الحكم بعد خلع الملك غيطشة، وهو ما ألقى بظلاله على مجريات المعركة وأضعف موقف لُذريق في الميدان.

وتنتهي وقائع القتال بما أورده المقرئ من أن المعركة ابتدأت في أواخر رمضان واستمرت إلى أوائل شوال، «ثم هزمَ الله المشركين؛ فقتلَ منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم - بعد ذلك بدهر طويل - ملبسة لتلك الأرض»². وقد ترافق هذا الانهيار العسكري مع تفكك شامل في جيش القوط، إذ فقد السيطرة والقيادة، واختفى لُذريق في خضم المعركة؛ وتذهب روايات إلى أنه لقي مصرعه غرقاً في موحلٍ بعد أن عُثر على فرسه وبعض متاعه، بينما ترجح أخرى فراره شمالاً، غير أن أثره انقطع عقب تلك الواقعة. وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للجيش القوطي، وإبادة جزء كبير من نُخبته العسكرية، وهو ما مهّد الطريق لفتح الأندلس.

لم يكن هذا الانتصار الإسلامي نتاج التفوق العسكري والتنظيمي فحسب، بل عزته المصادر التاريخية إلى عوامل داخلية أضعفت صفوف القوط. تشير بعض الروايات إلى وقوع

¹ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 7

² المقرئ: نفع الطيب 259/1

خيانة داخل جيش لذريق، حيث انقلب عليه عدد من القادة الطامحين في السلطة، مما أخل بتماسك قواته أثناء سير المعركة.

تُفيد الروايات بأن أبناء الملك السابق غيطشة (وتيزا) تأمروا ضد لذريق للإطاحة بحكمه. ويعزز هذه الرواية ظهور أوبا (أو أبة)، شقيق غيطشة، لاحقاً في العاصمة طليطلة، وهو ما يُعتمد به دليلاً على مشاركته الفعلية في المؤامرة التي ساهمت في زعزعة استقرار الجيش القوطي وإضعاف موقف لذريق في المعركة¹.

كما ذهب بعض المؤرخين إلى احتمال مشاركة يهود أيبيريا، الذين كانوا يعانون من الاضطهاد تحت حكم القوط، في دعم المسلمين، مستدلين ببعض المصادر ومنها الإسلامية التي تشير إلى استعانة المسلمين بهم في الحاميات، إلا أن هذه المشاركة لا تتعدى حراسة الحاميات، خاصة أن بعض المصادر الأخرى لم تذكر هذه المشاركة بشكل صريح².

وقد أسفرت المعركة عن نتائج بعيدة الأثر إذ تسببت في عن انهيار جيش القوط الغربيين وخسارتهم أعداداً كبيرة من الجنود، مما شكّل نهاية فعلية لحكم القوط الغربيين في الأندلس، وفتحت المجال أمام قيام نظام جديد فأصبحت ولاية تابعة للخلافة الأموية، ومثلت بداية تأسيس الحكم الإسلامي في المنطقة والذي اتسم بدرجةٍ من التنظيم والاستقرار، كما حقق المسلمون غنائم كبيرة، كان من أبرزها الخيول التي غيّرت من طبيعة تشكيلهم العسكري، فانقلوا من الاعتماد على المشاة إلى امتلاك قوة فرسان فعّالة. ورغم أن عدد المسلمين بلغ اثني عشر ألفاً عند بداية القتال، فقد انتهت المعركة بنحو تسعة آلاف، بعد سقوط قرابة ثلاثة آلاف شهيد، وهو ثمنٌ جسيم يعكس شدة المواجهة وضرورتها. وفي المحصلة، لم يكن هذا الانتصار ثمرة التفوق العددي أو العتاد، بقدر ما ارتبط بتماسك القيادة، وحسن التدبير الميداني،

¹ محمود شيت خطاب، مرجع سابق، ج1، ص 134.

² خالد يونس الخالدي، اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، ط1، 2008، ص 105، 106

والانسجام الداخلي، في مقابل ما أصاب خصومهم من تفرق واضطراب. أما مصير لذريق، فتشير المصادر الإسلامية إلى أنه اختفى بعد المعركة، ويرجح أنه لقي حتفه غرقاً في الوحل، مستلّين على ذلك بالعثور على فرسه الأبيض وقد غاص في بركة موحلة، إلى جانب وجود قطعة من لباسه مغمورة في الطين، وهو ما اعتُبر دليلاً على نهايته المأساوية. لقد كانت معركة وادي برباط فاتحة تحولٍ تاريخي غير وجه الأندلس لقرونٍ تالية¹.

قصة إحراق السفن:

تُعدّ قصة إحراق طارق بن زياد للسفن بعد عبوره إلى الأندلس من الروايات الشهيرة في الأدبيات التاريخية، غير أن أصلها يعود أساساً إلى ما أورده الشريف الإدريسي في كتابه *نزهة المشتاق*، وهو مصدر متأخر نسبياً عن زمن الفتح. وقد تبنت بعض المصادر اللاحقة هذه الرواية دون تمحيص، بينما سكتت عنها أغلب المصادر العربية والإسلامية المبكرة، مثل ابن عبد الحكم وابن القوطية، وهو ما يضعف من قيمتها كمصدر تاريخي موثوق، خاصة أن هذه المصادر كانت أقرب زمنًا إلى الحدث وأكثر اطلاعًا على تفاصيله².

ويذهب عدد من الباحثين إلى أن هذه الرواية تحمل طابعاً رمزياً أو أدبياً، إذ تعكس فكرة الحسم وقطع طريق التراجع لتحفيز الجنود على القتال، وهي فكرة شائعة في التراث العسكري العالمي. كما أن من غير المرجح عملياً أن يُقدم قائد عسكري على إحراق وسيلة الاتصال الوحيدة مع قواعده الخلفية في شمال أفريقيا، لما في ذلك من مخاطرة استراتيجية كبيرة. كما " أن المسلمين ما هم محتاجون للتحميم بحرق السفن، فقد جاءوا إلى هذه الأماكن

¹راغب السرجاني، مرجع سابق، ج2، ص6.

²عنان، ج1، ص48

راغبين في الجهاد في سبيل الله¹، لذلك يُرجَّح أن تكون القصة قد أُضيفت لاحقًا لإضفاء طابع بطولي على شخصية طارق بن زياد، أكثر من كونها واقعة تاريخية ثابتة.

المطلب الثالث: عوامل النصر في معركة وادي لكة

تعود أسباب وعوامل النصر في هذه المعركة إلى مجموعة من العوامل العسكرية والسياسية والاجتماعية التي ساهمت مجتمعة في تحقيق هذا الانتصار، ومن أبرزها:

1- ضعف وانقسام مملكة القوط الغربيين، حيث كانت تعاني من صراعات داخلية بعد انقلاب لذريق على الملك غيطشة، مما أدى إلى وجود معارضة داخلية وانقسام في صفوف الجيش، إلا أن لذريق استعان بهم في القتال²، وكان قواد الفرسان من أعداء لذريق الغاضبين على لذريق، كما أن يوليان ورجاله كانوا نشيطين في تخذيل الناس عن القتال وتثبيطهم، وصرّفهم عن لذريق³.

2- الخيانة والانشقاق داخل جيش لذريق، إذ تشير العديد من الروايات إلى أن بعض القادة، خاصة أنصار أبناء غيطشة، لم يدعموا لذريق بشكل كامل، بل ساهموا في إضعاف جيشه أثناء المعركة، مما أدى إلى انهيار صفوفه بسرعة، ويحكي حسين مؤنس إجماع المراجع العربية على أن آل غيطشة خذلوه وتركوه لمصيره مع المسلمين، وأن ذلك كان بتدبير مسبق⁴، وهذا ما يذكره المؤرخ دوزي رينهارت محاولاً التبرير للمعارضين قائلاً: «فدعاهم لمساعدته وهو ماضٍ لقتال طارق، فأجابوه لطلبه امتثالاً للقانون الذي يحتم عليهم طاعة الملك، وإن كانت صدورهم منطوية على كراهيته وعداوته وعدم الثقة به؛ فاتفقوا فيما بينهم على التخلّي عنه حين مواجهة العدو، ولم يكن معنى ذلك أنهم يرغبون في تسليم وطنهم إلى البربر، إذ ما كان لهذا

¹ راغب السرجاني، مرجع سابق، ج2، ص7

² محمود شيت خطاب، مرجع سابق، ج1، ص134.

³ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص135.

⁴ المرجع نفسه، ص135.

الخاطر أن يدور قطّ بخلاهم لا سيّما وهم يتطلعون لاسترداد السلطان والعرش، مما لا يتسنّى لهم إذا هم أسلموا البلاد للآخرين، اعتقاداً منهم - عن حق - أن البربر لم يطؤوا أرض المملكة للاستقرار ولتأسيس دولة.¹

ويجعلهم المؤرخ ابن القوطية سبباً أساسياً فيذكر أنهم طلبوا الأمان وضياًع أبيهم نظير مساعدة المسلمين على لذريق، ولما أجابهم طارق لذلك، يضيف: « فلما أصبحوا انحازوا بمن معهم إلى طارق فكانوا سبب الفتح»²

3- كفاءة القيادة العسكرية لطارق بن زياد، حيث أظهر مهارة كبيرة في تنظيم الجيش وإدارة المعركة، واستطاع استغلال الظروف لصالحه، مما عزز فرص النصر رغم قلة عدد قواته مقارنة بخصمه.

4- حماس المقاتلين المسلمين المستمد من قوة العقيدة وحب الجهاد في سبيل الله، خاصة من البربر، الذين كانوا يتمتعون بروح قتالية عالية ودافع قوي، مما جعلهم أكثر صموداً وثباتاً في ساحة المعركة، والحقيقة التي أثبتتها هذه المعركة -وغيرها من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي- أن المسلمين لا ينتصرون إلاّ بقوتهم الإيمانية؛ وهو ما يعبر عنه المؤرخ عبد الرحمن حجي بقوله: إن هذا الفتح يعود إلى قوّة المسلمين بتمكّن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم، إن تفوّق المسلمين مستمداً دوماً من إيمانهم بعقيدتهم؛ وليس من سوء أحوال الآخرين، كما أن الإسلام ينبع تفوّقه وسبقه من ذاتيته القوية وعقيدته النقية وتشريعه المكين؛ لأنه من وحي الله تعالى.³

¹ دوزي رينهارت، المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1995، ج1، ص44

² ابن القوطية، مصدر سابق، ص 74

³ عبد الرحمن الحجي، مصدر سابق، ص55.

خامسًا: الاستعداد الجيد والاستطلاع المسبق، حيث سبق الغزو إرسال حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، مما أتاح للمسلمين معرفة طبيعة الأرض وأوضاع العدو قبل المعركة¹.

سادسًا: سوء تنظيم جيش القوط مقارنة بالمسلمين، حيث كان الجيش الإسلامي أكثر مرونة وتنظيمًا، في حين عانى جيش لذريق من ضعف التنسيق والانضباط².

سابعًا: استغلال الظروف السياسية والاجتماعية في أيبيريا، مثل استياء بعض الفئات من حكم القوط، مما قلل من الدعم الشعبي لهم وسهّل تقدم المسلمين.

المبحث الثاني: معركة الزلاقة 479هـ / 1086م

المطلب الأول: السياق السياسي والعسكري

بعد وفاة الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر سنة 399هـ، دخلت الدولة الأموية في الأندلس مرحلة اضطراب حاد، إذ تولّى أخوه عبد الرحمن شنجول (المعروف بشنجول) زمام الحجابة، وسرعان ما سعى إلى تثبيت سلطانه بشكل غير مسبوق حين أجبر الخليفة هشام المؤيد بالله على إعلان ولايته للعهد، كان هذا الإجراء صادمًا للنخبة الأموية، لأنه كسر الأعراف السياسية التي كانت تحصر الخلافة في البيت الأموي، وأثار بذلك سخط الأمراء وكبار القادة الذين رأوا في ذلك تهديدًا مباشرًا لنفوذهم ومكانتهم³.

لم يلبث هذا التوتر أن تحول إلى صراع مفتوح، حيث بدأت المؤامرات تُحاك لإسقاط شنجول واستعادة الحكم الأموي التقليدي. ونجح محمد بن هشام، الذي تلقب لاحقًا بالمهدي بالله، في استغلال هذا الغضب العام، فقاد حركة انقلابية انتهت بقتل شنجول، وخلع الخليفة

¹ محمود شيت خطاب، مرجع سابق، ج1، ص235.

² راغب السرجاني، مرجع سابق، ج2، ص7.

³ بعاج مقدم، غنيمي، أميمة، الانحلال الأخلاقي في الاندلس خلال عهد ملوك الطوائف 422-484هـ / 1031-1090م، 2020-2021م، ص26.

هشام المؤيد بالله، وإعلان نفسه خليفة. بهذا الحدث دخلت الأندلس مرحلة جديدة عُرفت في التاريخ باسم فتنة الأندلس، وهي فترة من الحروب الأهلية والاضطرابات السياسية العنيفة التي استمرت حتى سنة 422هـ¹.

خلال هذه الفتنة تفككت السلطة المركزية تدريجياً، وضعفت هيبة الخلافة، وتعددت مراكز القوة، إلى أن انهارت الخلافة الأموية نهائياً. وعلى أنقاضها ظهرت دويلات صغيرة مستقلة عُرفت باسم **ممالك الطوائف**، كان يحكم كل واحدة منها أمير أو أسرة محلية. ومن أبرز هذه الممالك²:

- **بنو حمود** في مالقة والجزيرة الخضراء جنوباً.
- **بنو عباد** في إشبيلية غرباً، وكانوا من أقوى ملوك الطوائف.
- **بنو ذي النون** في طليطلة.
- **بنو هود** في سرقسطة شمالاً.
- **بنو عامر** في بلنسية ومرسية شرقاً .

ومع مرور الوقت، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، اشتدت الخصومات بين هذه الإمارات، حتى أصبح الصراع الداخلي أشد من مواجهتهم للعدو الخارجي. ولم يتردد بعض الأمراء في طلب العون من الممالك النصرانية في الشمال، بل ودفع الجزية لها مقابل الحماية أو الدعم العسكري، وهو ما أضعف الجبهة الإسلامية وأتاح للخصوم فرصة التوسع³.

¹ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، تحقيق: جاسم ياسين الدرويش، دار تموز، دمشق، ط1، 2015، ص 19.

² هشام حربي، الحياة السياسية في الأندلس عصر ملوك الطوائف مملكة بني عباد نموذجاً (414-484هـ/-1017-1079م) مذكرة ماستر تخصص تاريخ معاصر، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2017-2018، ص ص 26-29.

³ نفسه، ص 30.

وفي خضم هذه الصراعات اندلعت حروب بين الطوائف نفسها، خاصة بين طليطلة وقرطبة، وشارك فيها أمراء إشبيلية أيضًا، واستمر هذا النزاع سنوات طويلة تخللته تحالفات متقلبة، ومن أبرز تلك التحالفات تحالف المأمون بن ذي النون، أمير طليطلة، مع فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة، ما مكّنه من توسيع نفوذه والاستيلاء على بلنسية. وفي المقابل، تمكن المعتمد بن عباد أمير إشبيلية من السيطرة على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى، ثم دخل في تحالف مع ألفونسو السادس ملك قشتالة، الذي تعهد بتقديم الدعم العسكري له مقابل دفع الجزية.

غير أن هذا التعاون مع القوى النصرانية كانت له عواقب وخيمة، إذ استغل ألفونسو السادس هذه الانقسامات لصالحه، وتمكن سنة 478هـ / 1085م من الاستيلاء على طليطلة، التي كانت إحدى أعظم مدن الأندلس وعاصمتها القديمة، وكان سقوطها حدثًا مفصليًا وخسارة كبرى للمسلمين، إذ فقدوها بعد أكثر من ثلاثة قرون من الحكم، وأصبحت منذ ذلك الحين قاعدة رئيسية لقشتالة¹.

ولم يتوقف طموح ألفونسو عند هذا الحد بل واصل توسعه على حساب الإمارات الإسلامية، فسيطر على مناطق واسعة على ضفتي نهر تاجة²، واستولى على عدد من القلاع والمدن المهمة. أثار ذلك قلق المعتمد بن عباد، الذي حاول تحذيره من تجاوز حدود الاتفاق، لكن دون جدوى، إذ كان ألفونسو قد عزم على إخضاع كامل الأندلس.

¹ عنان محمد عبد الله، الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الثاني - دول الطوائف، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ص 356.

² تاجة: نهر منبعه جبال تطيلة يصب في بحر المحيط تتفرع منه عشرة أنهار، للمزيد انظر بن حاج ميلود، الصراع الإسلامي النورماني في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني (206هـ/822-854م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 73.

أمام هذا الخطر المتزايد، أدرك أمراء الطوائف أن انقساماتهم أوصلتهم إلى حافة الانهيار، وأنه لا سبيل لوقف التوسع النصراني إلا بالاستعانة بقوة خارجية، وهنا برز خيار الاستجداد بالمرابطين في المغرب، وهم دولة قوية نشأت في شمال أفريقيا، معروفة بتماسكها العسكري والتزامها الديني، فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأندلس ستتجسد لاحقاً في معركة الزلاقة وما تلاها من أحداث حاسمة¹.

في ظل التدهور الكبير الذي أصاب أوضاع المسلمين في الأندلس بعد سقوط طليطلة، بدأت الممالك النصرانية في الشمال تدرك أن الفرصة أصبحت سانحة لتوجيه ضربة حاسمة تنتهي الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية. فتجاوزت خلافاتها القديمة، التي طالما أضعفتها وأخرت توسعها، وتوحدت قواها في تحالف عسكري واسع غير مسبوق.

فقد اجتمع ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون، الذي بسط نفوذه على جليقية وأجزاء من البرتغال وأستورياس، مع سانشو الأول ملك أراغون ونافاراً، وانضم إليهما الكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة وأورجل، لتشكيل جبهة نصرانية موحدة هدفها المعلن القضاء على الإمارات الإسلامية المتفرقة. وكان سقوط طليطلة قد أعطاهم دفعة معنوية كبيرة، إذ أثبت لهم أن المسلمين باتوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم في ظل انقسامهم².

تحرك هذا التحالف بجيش ضخم منظم، انطلق من الشمال الغربي والشمال الشرقي، وتقدم عبر أراضي الأندلس في حملات متزامنة، فبدأوا باحتلال مدينة قورية التابعة لبني الأفطس، في خطوة استراتيجية لفتح الطريق نحو الجنوب، ثم واصلوا الزحف حتى بلغوا ضواحي إشبيلية،

¹ راغب سرجاني، مرجع سابق، ج9، ص 3.

² محمد عبد الله عدنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ج4، ص 600.

حيث مارسوا سياسة الأرض المحروقة، فأحرقوا القرى وأتلفوا المحاصيل، بهدف إضعاف الاقتصاد المحلي وبث الرعب في نفوس السكان¹.

ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا فرقاً من الفرسان في غارات عميقة داخل الأراضي الإسلامية، فوصلت إحدى هذه الفرق إلى شذونة، ثم اندفعت أخرى حتى بلغت جزيرة طريف في أقصى جنوب الأندلس قرب مضيق جبل طارق، في استعراض واضح للقوة ورسالة مفادها أن المسلمين لم يعد لهم ملاذ آمن حتى في أقصى أطراف بلادهم.

وفي الوقت نفسه، ركزت قوات أخرى من القشتاليين مدعومة بجند من الأراغونيين والقطولونيين، على جبهة الشمال الشرقي، حيث فرضوا حصاراً شديداً على مدينة سرقسطة، إحدى أقوى الحصون الإسلامية. وكان سقوط سرقسطة سيشكل تحولاً استراتيجياً خطيراً، إذ يمنح ألفونسو السيطرة على حوض نهر أبرة، ويفتح له الطريق نحو سواحل البحر المتوسط، مما يتيح له شن غارات بحرية وبرية متواصلة على ما تبقى من أراضي المسلمين².

ومع شدة الحصار وتزايد الضغط العسكري، بدت سرقسطة مهددة بالسقوط في أي لحظة، غير أن صمود الحصون الإسلامية وقوة تحصيناتها، إضافة إلى مقاومة المدافعين، حالت دون تحقيق هذا الهدف سريعاً، فقد قاومت المدينة يوماً بعد يوم وأعاقت تقدم الجيوش النصرانية، مما منح المسلمين وقتاً ثميناً لإعادة التفكير في وضعهم المتدهور.

ومع ذلك فإن هذه الحملات كشفت بوضوح حجم الخطر الذي أصبح يحيط بالأندلس من كل جانب، وأظهرت أن التحالف النصراني بات أكثر تنظيماً وقوة، في حين ظل المسلمون غارقين في خلافاتهم، وهو ما عجل بإدراك أمراء الطوائف أن بقاءهم أصبح مهدداً وجودياً،

¹ حسين جبار العلياي، مدينة قورية CORIA الأندلسية، (95-536 هـ، 713-1141م)، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد 67، الجزء 1، 1997 ص 17.

² حسين رجا الشقيرات، مدينة سرقسطة من الفتح إلى السقوط 95 هـ. / 714 م. - 512 هـ. / 1118 م، المركز القومي للبحوث غزة، فلسطين، 2018، ص 93.

وأنهم بحاجة إلى قوة كبرى توحد صفوفهم وتتصدى لهذا الزحف، فكان الاتجاه نحو الاستتجاد بدولة المرابطين في المغرب خطوة حاسمة ستغير مجرى الأحداث لاحقاً¹.

المطلب الثاني: مجريات القتال

مع اشتداد الخطر الذي بات يهدد الوجود الإسلامي في الأندلس، برز يوسف بن تاشفين، أمير دولة المرابطين، كقائد جامع للمسلمين²، فاتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة عسكرية واستراتيجية بعد أن وهبها له المعتمد بن عباد، لتكون مركزاً لتجميع الجيوش وخطاً للإمداد والانسحاب، وفي أجواء الاستعداد للمعركة أظهر عزيمة واضحة حين أعلن أنه أول المنتدبين لنصرة الدين وأنه سيتولى الأمر بنفسه، وقد التحقت به قوات عدد من أمراء الطوائف مثل المعتمد بن عباد وابن صمادح وعبد الله بن بلقين وأخيه تميم والمتوكل بن الأفطس وغيرهم، ورغم ما كان بينهم من خصومات فقد خضعوا لتنظيم محكم جعل الجيش الإسلامي ينقسم إلى معسكرين: معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد ومعسكر المرابطين بقيادة ابن تاشفين، مع توزيع دقيق للقوات حيث تولى المعتمد قيادة المقدمة مدعوماً بفرسان مرابطة، وقاد المتوكل الميمنة، وضمت الميسرة جند شرق الأندلس، بينما كانت الساقة لبقية القوات، واحتفظ ابن تاشفين بقوة احتياطية من نخبة المقاتلين لإدخالها في الوقت الحاسم، ثم تحرك الجيش نحو بطليوس حيث استقبلهم المتوكل وأمدهم بالمؤن، قبل أن يتمركزوا في سهل الزلاقة شمالها، وهناك تعاهد أمراء الأندلس على الوحدة ونبذ الخلاف في مشهد نادر من التوافق والإخلاص، في حين وصلت أنباء عبور المرابطين إلى ألفونسو السادس وهو يحاصر سرقسطة، فاضطر إلى رفع الحصار وسارع إلى حشد قواته من مختلف أنحاء مملكته واستدعى قادته من جبهات

¹ فطيمة مطهري، دور العلماء وأثرهم السياسي في توحيد المغرب والأندلس في عهد المرابطين، مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية، المجلد 03، العدد 02، 2016، ص 21.

² يونس فنيط، كلثوم مصباح، الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين 479-500هـ/1086-1106م، مذكرة ماستر تخصص حضارة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جامعة غرداية، 2018-2019، ص 7.

أخرى، بل واستنفر أوروبا فأتته الإمدادات، حتى كَوّن جيشًا ضخماً متفوقاً عدداً وعدة، فاغتر بقوته وظن أن النصر مضمون.¹

بينما كان اختيار سهل الزلاقة ميداناً للمعركة نتيجة تخطيط وإعٍ من الطرفين، إذ أراد ابن تاشفين استدراج العدو بعيداً عن حصونه إلى أرض يجهلها وتبقى فيها للمسلمين ميزة القرب من قواعدهم، في حين رأى ألفونسو أن مهاجمة المسلمين في أرضهم أكثر أماناً من انتظارهم داخل بلاده، وهكذا التقى الطرفان على أرض واحدة وكل منهما يعتقد أنه يملك الأفضلية، في وقت كانت فيه الأندلس على موعد مع معركة فاصلة ستحدد مصيرها لسنوات طويلة.²

اتباعاً لما جرت عليه الأعراف الإسلامية في إعلان القتال، وجّه يوسف بن تاشفين رسالة إلى ألفونسو السادس خيّره فيها بين الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، مستنداً إلى ما تقضي به السنة، فجاء في رسالته لهجة قوية وواثقة إذ قال: "بلغنا يا أذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها إلينا، فعبّرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك"، في إشارة واضحة إلى ثقته بالنصر.³

غير أن ألفونسو لم يستجب لهذا العرض، بل ردّ بكبرياء متحدياً، معلناً أنه سيأتي بنفسه لملاقاة المسلمين في أرضهم، وفي الوقت نفسه جرى التوافق -وفق الأعراف السائدة- على تحديد يوم للمعركة، حيث اقترح ألفونسو أن تكون يوم الإثنين، مبرراً ذلك بأن الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود في معسكره والأحد عيد النصارى، إلا أن هذا الاقتراح أثار شكوك

¹ حسين رجا الشقيرات، مرجع سابق، ص 95.

² يونس فنيط، كلثوم مصباح، مرجع سابق، ص/8

³ لمقري، مرجع سابق، ص 363.

المسلمين الذين توقعوا نية الغدر، ومع ذلك قبلوا به بعد أن شددوا الحراسة وبنوا العيون لمراقبة تحركات العدو.¹

وهو ما أكده ابن تاشفين لاحقًا حين أشار إلى علمه بخداع خصمه واستعداده لذلك، ثم عسكر الجيشان متقابلين يفصل بينهما نهر صغير من روافد وادي يانة، في حالة استنفار قصوى، حيث أتم المسلمون تنظيم صفوفهم فجعلوا في المقدمة فرسانًا مدججين بالسلاح لامتصاص الصدمة الأولى لهجوم العدو، بينما احتفظوا ببقية القوات وفق الخطة الموضوعة، في حين حشد ألفونسو جيشًا ضخماً متعدد المشارب ضم فرسانًا من قشتالة وأراغون وجليقية وأستورياس وبسكونية إضافة إلى متطوعين من جنوب فرنسا وإيطاليا ورجال الكنيسة، وقسم قواته إلى تشكيلات منظمة، فجعل طليعة الجيش بقيادة ألبارهانس، وكلف قسمًا أول بقيادة الكونت غارسيا وزودريك بمهاجمة مقدمة المسلمين، بينما تألف القسم الثاني من جناحين يقودهما سانشو راميريث والكونت ريموند، وتولى هو بنفسه قيادة القلب، وهكذا وقف الجيشان على أهبة المواجهة، كلٌّ منهما واثق بقوته ومستعد لمعركة فاصلة ستحدد مصير الأندلس.²

رغم الاتفاق الظاهري بين يوسف بن تاشفين وألفونسو السادس على أن تكون المعركة يوم الإثنين، فإن ملك قشتالة كان يضمّر خلاف ذلك، إذ رأى -كما يذكر المؤرخون- أن الخداع في الحرب جائز، فقرر مباغته المسلمين قبل الموعد المتفق عليه، واختار يوم الجمعة تحديدًا لما فيه من انشغال المسلمين بصلاتهم، غير أن المسلمين لم يغفلوا عن هذا الاحتمال³، فقد ارتابوا في نيّاته وشددوا الحراسة، وبنوا العيون والطلائع حول معسكره، حتى جاءت الأخبار في سحر يوم الجمعة 12 رجب 479هـ بتحريك جيشه فعليًا، حيث نقلت الطلائع إلى المعتمد

¹ فطيمة مطهري، مرجع سبق، ص 30.

² فضيل بوالصوف، العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010-2021، ص 114.

³ نفسه، ص 115.

بن عباد ما سمعوه من ضجيج السلاح واستعدادات الهجوم، بل وحتى خطة ألفونسو التي ركزت على ضرب المعتمد أولاً باعتباره محور قوة المسلمين، فسارع المعتمد بإبلاغ يوسف بن تاشفين بما حدث، فكان رد الأخير حاسماً إذ أكد استعداده للتدخل الفوري، وقد كشفت هذه اللحظة عن يقظة المسلمين واستعدادهم النفسي والعسكري رغم عنصر المفاجأة، وكان من أبرز عناصر قوتهم الخطة المحكمة التي وضعها ابن تاشفين، خاصة اعتماده على قوة احتياطية من نخبة المرابطين أخفاها خلف المرتفعات لتدخل المعركة في الوقت المناسب، معتمدة على عنصر المباغته وطبيعة الأرض الوعرة.¹

وعندما بدأت المعركة اندفع جيش قشتالة بقوة هائلة بقيادة الكونتتين غارسيا وزودريك نحو مقدمة المسلمين بقيادة المعتمد، فكان الهدف إرباك الصفوف وتحقيق نصر سريع، لكنهم اصطدموا أولاً بقوات مرابطية بقيادة داود بن عائشة، الذي رغم شدة الهجوم استطاع الصمود مستعيناً بكثافة الرماة، وإن تكبد خسائر كبيرة، وفي الوقت ذاته كانت قوات المعتمد تخوض قتالاً غير متكافئ أدى إلى تراجع بعض الأندلسيين وفرار عدد منهم نحو بطليوس، غير أن المعتمد وثلة من رجاله ثبتوا في مواقعهم وقاتلوا بشجاعة حتى اشتد عليهم الحصار، وهنا ظن ألفونسو أن النصر بات قريباً خاصة مع تراجع المسلمين، فواصل ضغطه حتى وصل إلى خيام المرابطين، غير مدرك أن القوة الرئيسية لم تدخل بعد، إذ كان يوسف بن تاشفين يراقب المعركة منتظراً اللحظة الحاسمة، فلما بلغ الإجهاد من جيش القشتاليين مداها، دفع بقواته الاحتياطية في هجوم مباغت استهدف معسكر العدو مباشرة، فأشعل فيه النار وقتل حاميته،

¹ الموسوعة العربية، بلاط الشهداء، على الموقع <https://mail.arab-ency.com.sy/details/4375>، تمت الزيارة في

01 ماي 2026، على الساعة 12.00

وأثار الذعر في صفوفه، خاصة مع استخدام الإبل التي أفرغت خيل القشتاليين، فاختلفت صفوفهم وبدأت الفوضى تدب بينهم، مما اضطر ألفونسو إلى التراجع سريعًا لإنقاذ معسكره.¹ وعند هذه اللحظة أدرك المعتمد أن كفة المعركة بدأت تميل لصالح المسلمين، فأمر بالهجوم، والتحمت القوات من جديد، وانضم الفارون من الأندلسيين إلى القتال، فاشتد الضغط على جيش قشتالة من كل جانب، حتى تحول انسحابه إلى هزيمة قاسية كادت تقضي عليه تمامًا، في واحدة من أعظم المعارك التي شهدتها الأندلس، والتي أثبتت أن وحدة الصف والتخطيط المحكم قادران على قلب موازين القوى مهما بدا العدو متفوقًا.²

لما اشتد القتال على جيش ألفونسو السادس واستمر لساعات طويلة، وجد نفسه في موقف حرج بين قوتين متماسكتين: قوات المعتمد بن عباد من جهة، وقوات يوسف بن تاشفين من جهة أخرى، حتى أصبح جيشه محاصرًا بين كماشة محكمة، ومع تزايد الضغط والإعياء الذي أصاب جنوده، جاءت اللحظة الحاسمة حين دفع ابن تاشفين بحرسه الخاص، وهم نخبة من الفرسان الشجعان يبلغ عددهم نحو أربعة آلاف، إلى قلب المعركة لتوجيه الضربة القاضية، فاندفعوا بقوة واخترقوا الصفوف القشتالية، وتمكن أحدهم من الوصول إلى ألفونسو نفسه وطعنه في فخذ طعنة نافذة، ظل أثرها ملازمًا له طوال حياته،³ ومع اقتراب غروب الشمس أدرك ألفونسو وقادته أنهم يواجهون هزيمة محققة، فانسحب مع قلة من فرسانه إلى تل قريب يتحصنون به، ثم تمكن تحت جناح الظلام من الفرار نحو قورية، تاركًا وراءه جيشًا محطماً، وبذلك انتهت معركة الزلاقة التي لم تستغرق سوى يوم واحد، لكنها كانت فاصلة في تاريخ الأندلس، حتى قيل إنها لم يُسمع بمثلها منذ اليرموك والقادسية لما كان لها من أثر عظيم في

¹ خالد حموم، معركة أقيش ودورها في الجهاد الإسلامي بالأندلس، مجلة المعرف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 11، 2017، ص 47.

² عيد السرحان خضر، إبراهيم الخصاونة داميء، معركة الزلاقة 479هـ-1086م، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، مج 7، العدد 2، 2025، ص 96.

³ نفسه، ص 97.

تثبيت أقدام المسلمين بعد أن كادت تنزل، وقد عُرفت هذه المعركة عند المسلمين باسم الزلاقة نسبة إلى السهل الذي وقعت فيه، بينما ميزتها الروايات الأوروبية إلى مرحلتين سميتا رودا وسكرالياس، وانتشر خبر هذا النصر في الآفاق انتشارًا واسعًا، فأرسلت الرسائل إلى المغرب، وُقُرئت البشائر في المساجد، وعمّت الأفراح مدن الأندلس، خاصة إشبيلية التي أُضيئت احتفالًا بالنصر، وأقيمت الصلوات شكرًا لله، في مشهد عكس حجم الفرح والانتصار بعد فترة طويلة من الانكسار، وقد كان لهذا النصر آثار عميقة تمثلت في وقف الزحف النصراني مؤقتًا، ورفع معنويات المسلمين، وتعزيز مكانة المرابطين في الأندلس، وإعادة شيء من التوازن في الصراع بين المسلمين والممالك النصرانية¹.

المطلب الثالث: عوامل النصر الحاسمة

يمكن إجمال عوامل النصر الحاسمة في معركة الزلاقة في مجموعة من العناصر المتكاملة التي تفاعلت معًا لتحقيق هذا الانتصار الكبير²:

أولاً: وحدة الصف الإسلامي المؤقتة، إذ اجتمع أمراء الطوائف رغم خلافاتهم تحت قيادة واحدة، مما أنهى حالة التشرذم التي أضعفتهم سابقًا، وخلق قوة عسكرية متماسكة قادرة على مواجهة الخطر الخارجي.

ثانياً: القيادة العسكرية الحكيمة ليوסף بن تاشفين، فقد أظهر حنكة كبيرة في التخطيط والتنظيم، سواء في اختيار موقع المعركة أو في توزيع القوات، إضافة إلى قدرته على ضبط أمراء الطوائف وإدماجهم ضمن خطة واحدة.

¹ خميسي بولعراس، معركة الزلاقة 479هـ-1086م، دراسة في الاستراتيجية والتكتيك، دراسة تراثية، المجلد 8، العدد 01، 2014، ص 155.

² عيد السرحان خضر، إبراهيم الخصاونة داميا، مرجع سابق، ص 99.

ثالثاً: الخطة العسكرية المحكمة وخاصة استخدام القوة الاحتياطية التي أخفاها ابن تاشفين حتى اللحظة الحاسمة، ثم دفع بها في الوقت المناسب لتنفيذ هجوم مفاجئ قلب موازين المعركة. رابعاً: اختيار موقع المعركة (سهل الزلاقة)، حيث استطاع المسلمون استدراج الجيش القشتالي إلى أرض يعرفونها جيداً، بعيدة عن حصونه، مما أفقده ميزة الدفاع وأوقعه في ظروف غير مواتية.

خامساً: الصمود الأولي لقوات الأندلس والمرابطين، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد وداود بن عائشة، الذين تحملوا الصدمة الأولى لهجوم ألفونسو العنيف، مما أتاح الوقت لتنفيذ الخطة العامة.

سادساً: عنصر المفاجأة والتوقيت المناسب للهجوم، إذ جاء تدخل القوات الاحتياطية بعد أن بلغ التعب من جيش القشتاليين ذروته، فكانت الضربة حاسمة نفسياً وعسكرياً.

سابعاً: العامل النفسي والمعنوي، حيث كان المسلمون يقاتلون بروح دينية عالية وشعور بالدفاع عن الوجود، في مقابل ثقة مفرطة وغرور لدى ألفونسو وجيشه، مما أدى إلى انهيارهم السريع عند تغير مجرى المعركة¹.

ثامناً: أخطاء ألفونسو السادس، وأبرزها الاستهانة بالمسلمين، والاعتماد على الهجوم المبكر والخداع، إضافة إلى اندفاعه العميق داخل أرض المعركة دون تأمين كافٍ لمعسكره، مما جعله عرضة لهجوم مفاجئ².

تاسعاً: استخدام وسائل غير مألوفة في القتال مثل الإبل التي أفزعت خيول القشتاليين، فساهمت في إرباك صفوفهم وزيادة الفوضى بينهم.

¹ خميسي بولعراس، مرجع سابق، ص 157.

² نفسه، ص 160.

المبحث الثالث: معركة الأرك 591هـ / 1195م

المطلب الأول: السياق العام وظروف المواجهة

تعدّ معركة الأرك من أبرز المعارك التي شهدتها الأندلس في أواخر القرن السادس الهجري، إذ وقعت يوم 9 شعبان سنة 591هـ الموافق 18 يوليو 1195م بين جيش الموحيين بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور وجيش قشتالة بقيادة الملك ألفونسو الثامن، وقد كان لهذه المعركة أثر بالغ في ترسيخ نفوذ الموحيين في الأندلس وتعزيز هيبتهم العسكرية، حتى اضطر ألفونسو بعدها إلى طلب الصلح والهدنة، وقد عدّها المؤرخون معادلة في تأثيرها لمعركة الزلاقة لما ألحقته من هزيمة قاسية بالقوى النصرانية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد سُمّيت المعركة بهذا الاسم نسبةً إلى قلعة الأرك الواقعة قرب موقعها، وهي حصن حدودي كان يفصل بين أراضي المسلمين وقشتالة، ولذلك اشترك الطرفان في نسبتها إليه، وإن كان النصارى قد أطلقوا عليها أيضًا اسم "كارثة الأرك" لما أصابهم فيها من خسارة فادحة.¹

أما خلفية المعركة فتعود إلى أحداث سبقتها، حين قام ملك البرتغال سانشو الأول سنة 1191م بمهاجمة مدينة شلب الإسلامية بمساعدة قوات صليبية، فاستجاب الخليفة الموحي يعقوب المنصور سريعًا، فعبر إلى الأندلس واستعاد المدينة²، ثم أرسل جيوشًا أغارت على عدد من المدن التي كان النصارى قد استولوا عليها سابقًا، مما أثار الذعر في ممالك الشمال، ودفع ألفونسو إلى طلب هدنة استمرت خمس سنوات، عاد بعدها المنصور إلى مراكش.³

¹ جليد خولة، نوار نسيم، ركائز الانتصار والتمكين في معركة الأرك الكبرى 591هـ / 1195م، مجلة البحوث التاريخية، المجلد 08، العدد 02، ص 2024، ص 88.

² نفسه، ص 89.

³ خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، لبنان، 2000، ص 112.

غير أن هذه الهدنة لم تدم، إذ ما إن انتهت حتى بادر ألفونسو بإرسال حملة عسكرية إلى أراضي المسلمين قامت بالنهب والتخريب، في خطوة استفزازية أعقبها برسالة فيها سخرية وتحدي للخليفة الموحي، فردّ عليه المنصور برد حازم توعد فيه بالرد العسكري، وأمر بالتعبئة العامة وإعلان الجهاد في المغرب، فاستجاب الناس وخرجت الجيوش معه إلى الأندلس، حيث عبر إلى الجزيرة الخضراء ثم اتجه إلى إشبيلية ومنها نحو أراضي قشتالة، بعد أن انضمت إليه قوات أندلسية كبيرة، وقد اختلفت الروايات في تقدير عدد جيشه، فبعضها يبالغ فيذكر أرقامًا ضخمة، بينما يق لدره آخرون بعشرات الآلاف، وهو ما يكفي للدلالة على ضخامة الحشد.¹

وعندما علم المنصور بتحريك ألفونسو وتمركزه بين قلعة رباح وقلعة الأرك، غير مساره واتجه نحوه، ونزل على مقربة منه، وأمضى أيامًا في التشاور مع قاداته لوضع خطة المعركة، وكان من أبرز مستشاريه القائد الأندلسي عبد الله بن صناديد الذي أشار بتنظيم الجيش وفق خطة دقيقة تراعي طبيعة الجنود واختلافهم، فجعل الأندلسيون في اليمين بقيادة، والعرب والبربر في اليسار، والجيش النظامي في القلب، والمتطوعون في المؤخرة، بينما احتفظ الخليفة بقوة احتياطية خلف التلال لتدخل في الوقت المناسب، وقد أخذ المنصور بهذه الخطة وعززها بتعيين قيادة عامة وتنظيم الصفوف، ثم أخذ يحفز جنوده ويحثهم على الإخلاص والثبات، حتى روي أنه خطب فيهم داعيًا إلى الصفح والتجرد لله، فبكى الجنود تأثرًا، وفي المقابل حاول ألفونسو استدعاء الدعم من ملوك نافارا وليون، إلا أن نجدة هؤلاء تأخرت، فقرر خوض المعركة بما لديه من قوات كبيرة قُدرت بعشرات الآلاف، معتمدًا على ثقته بتفوقه وخبرته السابقة في

¹ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مرجع سابق، ج4، ص 169.

غزو أراضي المسلمين، لتتجه بذلك الأحداث نحو مواجهة كبرى ستحدد ميزان القوى في الأندلس من جديد.¹

المطلب الثاني: سير المعركة

كان الجيش القشتالي يتمركز في موقع مرتفع يمنحه أفضلية ميدانية واضحة، إذ كان يطل على مواقع المسلمين وتحميه من الخلف قلعة الأرك، وقد نظم ألفونسو الثامن جيشه في تشكيلات محكمة، فجعل المقدمة من الفرسان بقيادة لوبيز دي هارو، بينما قاد بنفسه قلب الجيش ومؤخرته التي ضمت نخبة مقاتلي قشتالة، وقد بلغت بعض الروايات في تقدير عدد جيشه حتى بلغ مئات الآلاف، كما استدعى فرسان القلاع العسكرية والفرق النصرانية المقاتلة، وحاول كذلك الاستعانة بملكي ليون ونافار، إلا أن دعمهما تأخر، ومع ذلك دخل المعركة بقوة كبيرة ووائتًا من النصر.²

وعندما بدأت المواجهة يوم 9 شعبان 591هـ، اتبع القشتاليون أسلوبًا قتاليًا متدرجًا، فكانوا يرسلون موجات متتابعة من الفرسان، كلما أنهكت دفعة أرسلوا غيرها، وقد وصف ابن عذاري الهجوم الأول بأنه كالبحر الهائج، وتمكن المسلمون من صده رغم شدته، ثم تكرر الهجوم مرة ثانية وثالثة، حتى بدأ الإرهاق يظهر على صفوف الموحدين، خاصة في جناحي العرب والبربر الذين استنزفوا قواهم في صد الهجمات المتلاحقة، ومع الهجمة الثالثة نجح القشتاليون في اختراق صفوف المسلمين والتوغل نحو قلب الجيش³، بل قُتل القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص وهو يقاتل بشجاعة، وكادت الكفة تميل لصالح ألفونسو الذي ظن أن النصر قد تحقق.⁴ غير أن هذا التقدم القشتالي كان بداية تحول حاسم، إذ استغل الأندلسيون

¹ الموسوعة العربية، الأندلس تاريخياً، على الرابط التالي: <https://arab-ency.com.sy/details/14658>، تمت الزيارة في 2026/04/12، على الساعة 09.00.

² خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب، مرجع سابق، ص 115.

³ جليد خولة، نوار نسيم، مرجع سابق، ص 94.

⁴ نفسه، ص 95.

بقيادة ابن صناديد، ومعهم بعض قبائل زناتة في الميمنة، هذا الاندفاع وشنّوا هجوماً مضاداً على قلب الجيش القشتالي، فتمكنوا من إرباكه وفصل مقدمته عن مؤخرته، خاصة وأن ألفونسو كان يقاتل في القلب محاطاً بنخبة فرسانه، وفي تلك اللحظة الحرجة خرج الخليفة يعقوب المنصور بقواته الاحتياطية التي أخفاها خلف التلال، فانقضّ بها على العدو في توقيت حاسم، فاجتمعت قوات المسلمين من مختلف الجهات على الجيش القشتالي المحاصر، ووقعت فيه مقتلة عظيمة، قُتل فيها عدد كبير وفرّ الباقيون.¹

ثم واصل المسلمون التقدم تحت راية الموحدين البيضاء، حتى وصلوا إلى ما تبقى من فرسان قشتالة الذين تجمعوا حول ملكهم وقاتلوا قتال المستميت، قبل أن يُقتل معظمهم ويتمكن ألفونسو من الفرار إلى طليطلة في حالة يرثى لها، وبعد انتهاء المعركة، حاصر المسلمون قلعة الأرك التي احتفى بها لوبيز دي هارو ومن معه، فلم يلبثوا أن استسلموا وطلبوا الصلح، فقبل المنصور ذلك مقابل إطلاق أسرى المسلمين، وقد اختلفت الروايات في تقدير خسائر القشتاليين، لكنها تجمع على أنها كانت فادحة جداً، حتى عُدت هذه المعركة ضربة قاصمة لقوة قشتالة، وأحد أعظم انتصارات المسلمين في الأندلس بعد الزلافة.²

المطلب الثالث: عوامل الانتصار الموحي

يمكن تلخيص أسباب الانتصار الموحي في معركة الأرك في مجموعة من العوامل العسكرية والاستراتيجية التي تفاعلت فيما بينها بشكل متكامل، بحيث لم يكن أي عامل منها كافياً بمفرده، بل جاء النصر نتيجة انسجام هذه العناصر ضمن رؤية قيادية واعية. فقد شكّل حسن القيادة والتخطيط الركيزة الأساسية، حيث أظهر الخليفة يعقوب المنصور قدرة عالية على إدارة المعركة، مستفيداً من خبرة القادة الأندلسيين، وعلى رأسهم عبد الله بن صناديد، الذي

¹ جليد خولة، نوار نسيم، مرجع سابق، ص 94.

² ريه أحمد عبد الظاهر محمد، علاقة الموحدين السياسية بمملكة قشتالة الأسبانية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد 54، 2022، ص 169.

وضع خطة دقيقة لتنظيم الجيش وتوزيع أدواره بما يتلاءم مع طبيعة المقاتلين واختلاف خبراتهم. وقد تجلت هذه الرؤية في الخطة العسكرية المحكمة التي اعتمدت على إخفاء قوة احتياطية بقيادة الخليفة نفسه خلف التلال، لتبقى بعيدة عن أنظار العدو حتى اللحظة المناسبة، وهو ما أتاح تحقيق عنصر المفاجأة الذي كان حاسماً في قلب مجريات القتال.

كما أسهم تنظيم الجيش وتقسيمه المتوازن إلى يمينية وميسرة وقلب ومقدمة ومؤخرة في تحقيق مرونة ميدانية عالية، مكّنت القوات من التكيف مع تطورات المعركة، خاصة في ظل الضغط الشديد الذي تعرضت له في بدايتها. ويبرز هنا أيضاً الصمود في مواجهة الهجمات الأولى¹، حيث استطاعت القوات الإسلامية امتصاص موجات الهجوم القشتالي المتتالية رغم عنفها، وهو ما أدى إلى إنهاء العدو تدريجياً واستنزاف طاقاته قبل الانتقال إلى المرحلة الحاسمة. وعندما سنحت الفرصة، جاء الهجوم المضاد في التوقيت المناسب، إذ استغل الأندلسيون بقيادة ابن صناديد اندفاع القشتاليين نحو قلب الجيش، فهاجموه وأربكوا صفوفه، ثم تدخلت القوة الاحتياطية بقيادة المنصور لتحسم المعركة بشكل نهائي².

وفي المقابل كان لأخطاء ألفونسو الثامن دور واضح في تسهيل هذا الانتصار، خاصة تسرعه في خوض المعركة دون انتظار حلفائه، واعتماده على الهجوم المباشر دون تأمين خطوطه أو تقدير دقيق لقوة خصمه، مما جعله يقع في كمين تكتيكي محكم. كما لعب العامل النفسي والمعنوي دوراً مهماً، إذ دخل المسلمون المعركة بروح عالية مدفوعة بإعلان الجهاد والشعور بالدفاع عن الدين، في حين اتسم موقف القشتاليين بشيء من الثقة المفرطة التي تحولت إلى ارتباك عند تغير مجريات القتال. ويُضاف إلى ذلك استخدام أساليب قتالية فعالة،

¹راغب السرجاني، مرجع سابق، ج 9، ص 7.

² نفسه، ج 9، ص 12.

مثل الرمي المكثف بالنبال من قبل الغز، والهجمات السريعة للفرسان الخفاف، والتي أربكت تنظيم الجيش القشتالي وأضعفت تماسكه¹.

وعليه، فإن النصر الموحد في معركة الأرك لم يكن نتيجة تفوق عددي فحسب، بل كان حصيلة تخطيط استراتيجي محكم، وتنظيم عسكري دقيق، وقيادة واعية، واستغلال ناجح لعوامل الأرض والزمن، إضافة إلى أخطاء الخصم، مما جعل هذه المعركة واحدة من أبرز الانتصارات في تاريخ الأندلس².

المبحث الرابع: عوامل النصر في المعارك الثلاث (دراسة تحليلية مقارنة)

المطلب الأول: وحدة القيادة والشرعية السياسية

يُعدّ عامل وحدة القيادة والشرعية السياسية من أبرز العوامل الحاسمة التي أسهمت في تحقيق النصر في المعارك الثلاث، إذ لم يكن مجرد إطار تنظيمي، بل شكّل أساساً متيناً لتوحيد الجهد العسكري وضبط مسار العمليات القتالية. ففي معركة الزلاقة، برز يوسف بن تاشفين بوصفه قائداً أعلى يتمتع بشرعية دينية وسياسية قوية، مستمدة من كونه أمير دولة قائمة ذات مشروع واضح، الأمر الذي مكّنه من فرض وحدة القيادة على أمراء الطوائف رغم ما كان بينهم من تنازع، فاجتمعوا تحت رايته في لحظة تاريخية فارقة، وهو ما أتاح توجيه القوات ضمن خطة موحدة متناسقة، بعد أن كانت تعاني من التشتت وضعف التنسيق. وقد انعكس ذلك في قدرة الجيش على الصمود أولاً، ثم الانتقال المنظم إلى الهجوم الحاسم³.

أما في معركة الأرك، فقد تجلّت وحدة القيادة بصورة أكثر رسوخاً، حيث قاد الخليفة الموحد يعقوب المنصور جيشاً موحدًا يجمع بين قوى المغرب والأندلس تحت سلطة مركزية

¹ خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب، مرجع سابق، ص 123.

² جليد خولة، نوار نسيم، مرجع سابق، ص 97.

³ خميسي بولعراس، مرجع سابق، ص 160.

قوية، مستندة إلى شرعية الخلافة الموحدية، وهو ما أضفى على القيادة طابعًا جامعيًا يتجاوز الولاءات المحلية والقبلية. وقد انعكس هذا الأمر في مستوى عالٍ من الانضباط والتماسك داخل الجيش، وسهّل تنفيذ خطط عسكرية مركبة تتطلب تنسيقًا دقيقًا بين مختلف الوحدات، خاصة فيما يتعلق باستخدام القوات الاحتياطية والتوقيت الحاسم للتدخل، وهي عناصر لا يمكن تحقيقها دون قيادة موحدة ذات سلطة معترف بها¹.

وفي المقابل، يظهر من خلال المقارنة أن الطرف القشتالي، رغم ما امتلكه من تفوق عددي وتنوع في القوى المشاركة، عانى من درجة من التفكك في القيادة، سواء بسبب تأخر دعم حلفائه من ملوك ليون ونافار، أو نتيجة تعدد القيادات الميدانية واختلاف خلفياتها، مما أثر سلبًا على مستوى التنسيق، خاصة في المراحل الحرجة من القتال. كما أن غياب سلطة جامعة تضبط إيقاع هذه القوى جعلها أقل قدرة على التكيف مع التحولات المفاجئة في ساحة المعركة².

وعليه فإن وحدة القيادة المرتبطة بشرعية سياسية واضحة لم تكن مجرد عنصر إداري، بل كانت ركيزة أساسية في رفع الروح المعنوية، وتعزيز الثقة بين القائد وجنده، وترسيخ الانضباط داخل الصفوف، وهو ما انعكس مباشرة على كفاءة الأداء العسكري، ومنح الجيوش الإسلامية قدرة أكبر على الصمود والمناورة واتخاذ القرار في الوقت المناسب، مما أسهم في تحقيق النصر في لحظات حاسمة.

¹ جليد خولة، نوار نسيم، مرجع سابق، ص 98.

² العايب ناصر، خليفة حنان، مملكة قشتالة ودورها في إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس (ق 5هـ - ق 9هـ)، مذكرة ماستر تخصص الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جامعة تيارات، 2021-2022، ص 74.

المطلب الثاني: الكفاءة العسكرية والتخطيط الاستراتيجي

يُعدّ عامل الكفاءة العسكرية والتخطيط الاستراتيجي من الركائز الجوهرية التي أسهمت في ترجيح كفة المسلمين في المعارك الثلاث، إذ لم يكن التفوق الحاسم قائمًا على الكثرة العددية بقدر ما كان نتيجة لحسن توظيف الموارد البشرية والعسكرية ضمن رؤية واعية ومدروسة.¹

فقد تجلّت هذه الكفاءة بوضوح في القدرة على تنظيم القوات، وتوزيعها وفق أدوار محددة، مع مراعاة طبيعة الميدان وظروف القتال، وهو ما منح الجيوش الإسلامية مرونة تكتيكية عالية مكنتها من التكيف مع تطورات المعركة، ففي معركة الزلاقة برزت عبقرية يوسف بن تاشفين في إعداد خطة تقوم على امتصاص الصدمة الأولى لهجوم العدو عبر مقدمة تتحمل الضغط مقابل الاحتفاظ بقوة احتياطية مخفية تتدخل في اللحظة المناسبة، بعد أن يُنهك الخصم، وهو ما أدى إلى قلب ميزان المعركة بشكل مفاجئ، كما أن اختياره لميدان القتال لم يكن عفويًا، بل جاء ضمن استراتيجية استدراج مدروسة تهدف إلى إخراج الجيش القشتالي من مناطقه المأمونة وإجباره على القتال في بيئة غير مألوفة له.²

أما في معركة الأرك، فقد ظهرت الكفاءة العسكرية في صورة أكثر تركيبًا وتنظيمًا، حيث اعتمد الموحدون خطة متعددة المستويات وضعها عبد الله بن صناديد، تقوم على توزيع الجيش إلى تشكيلات متخصصة وفق طبيعة المقاتلين³، بما يضمن تكامل الأدوار بين مختلف الوحدات، مع الاحتفاظ بقوة احتياطية بقيادة الخليفة يعقوب المنصور تُستخدم في التوقيت

¹ جليد خولة، نوار نسيم، مرجع سابق، ص 99.

² خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب، مرجع سابق، ص 125.

³ بن خيرة أحمد، غانية البشير، التحضير والتخطيط العسكري في المعارك الحربية عند الموحدين ضد النصارى الأندلس معركة الأرك أنموذجًا، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 04، العدد 02، 2020، ص 15.

الحاسم. وقد أثبتت هذه الخطة فعاليتها عندما صمدت القوات في مواجهة الهجمات الأولى، ثم انتقلت إلى الهجوم المضاد بعد تدخل القوة الاحتياطية، مما أدى إلى تفكك صفوف العدو وانهياره. كما اتسم الأداء العسكري بالقدرة على استيعاب الضربات القوية دون فقدان السيطرة، وهو ما يعكس مستوى عاليًا من الانضباط والتدريب.

ومن خلال المقارنة يتضح أن الجيوش الإسلامية امتازت بوعي استراتيجي شامل يجمع بين التخطيط المسبق وحسن التنفيذ والتوقيت الدقيق، في مقابل اعتماد الطرف القشتالي على القوة المباشرة والهجوم المتكرر دون رؤية تكتيكية مرنة أو تأمين كافٍ لخطوطه، مما جعله عرضة للإنهاء والاستدراج¹، وعليه فإن الكفاءة العسكرية في هذه المعارك لم تكن مجرد مهارة في القتال، بل كانت منظومة متكاملة تشمل التخطيط والتنظيم والقيادة وحسن استغلال الزمن والمكان، وهي التي مكّنت المسلمين من تحقيق انتصارات حاسمة رغم التحديات².

كذلك أظهر الموحدون قدرة عالية على امتصاص الصدمة الأولى للهجمات المتتالية، وهو ما يعكس نضجًا عسكريًا واضحًا قائمًا على الصبر والانضباط وعدم التسرع في رد الفعل، إذ لم يكن الهدف مجرد صد الهجوم، بل استنزاف قوة العدو تدريجيًا وإضعاف زخمه القتالي قبل الانتقال إلى المرحلة الحاسمة³. وقد مكّنتهم ذلك من الحفاظ على تماسك صفوفهم رغم شدة الضغط، ثم التحول في الوقت المناسب إلى الهجوم المضاد الذي قلب موازين المعركة. ومن خلال المقارنة، يتضح أن الجيوش الإسلامية في هذه المعارك تميزت بمرونة تكتيكية عالية، تمثلت في قدرتها على التكيف مع مجريات القتال، واستيعاب الضربات الأولى، ثم إعادة تنظيم الصفوف والانقضاض في اللحظة المناسبة، مستفيدة من حسن استغلال عاملي الأرض

¹ العربي محمد أمين، العربي سكيئة، معركة الزلاقة وأثرها في توقيف الزحف الصليبي في الأندلس 479-540هـ، مذكرة ماستر تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2017-2018، ص 51.

² نفسه، ص 52.

³ فاطمة بلهاري، التأصيل التاريخي لحركة الموحدين خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، العدد 12، 2000، ص 50.

والزمن، حيث لم تكن المعركة تُدار بعفوية، بل وفق إيقاع محسوب يراعي إنهالك الخصم قبل توجيه الضربة القاضية¹.

وفي المقابل اعتمد الطرف القشتالي على أسلوب الهجوم المباشر والقوة العددية، مع غلبة الطابع الاندفاعي في قراراته، دون تخطيط بعيد المدى أو تأمين كافٍ لخطوطه الخلفية، وهو ما جعله عرضة للاستدراج والوقوع في الكمائن، خاصة عند التوغل في عمق ميدان المعركة دون احتياط أو دعم منظم. كما أن تكرار الهجمات دون تنسيق مرن أو قراءة دقيقة لتطورات القتال أدى إلى استنزاف قواه بشكل متسارع، ففقد القدرة على المبادرة مع تحول المعركة إلى مرحلة الهجوم المضاد الإسلامي².

وعليه فإن الكفاءة العسكرية في هذه المعارك لم تكن مجرد مهارة في القتال أو شجاعة فردية، بل كانت منظومة متكاملة تشمل التخطيط الاستراتيجي المسبق، والتنظيم الدقيق للقوات، والانضباط في التنفيذ، وحسن اختيار التوقيت، وهو ما مكّن المسلمين من تحويل مسار المعارك لصالحهم، وتحقيق انتصارات حاسمة رغم ما واجهوه من تحديات وضغوط ميدانية³.

المطلب الثالث: أثر الروح المعنوية والدافع العقائدي

يُعدّ أثر الروح المعنوية والدافع العقائدي من أهم العوامل التي أسهمت في ترجيح كفة المسلمين في المعارك الثلاث، إذ لعب هذا العامل دورًا حاسمًا في تعزيز الصمود والثبات في أشد لحظات القتال، فقد دخل المسلمون هذه المعارك وهم يحملون شعورًا قويًا بالدفاع عن الدين والوجود، خاصة في ظل التهديد الحقيقي الذي واجه الأندلس، مما رفع من مستوى الحماسة والإقدام لديهم، وجعلهم أكثر استعدادًا للتضحية والثبات في الميدان، ففي معركة الزلاقة كان إعلان الجهاد وتوحد المسلمين تحت راية واحدة سببًا في بعث روح جديدة في

¹ فاطمة بلهوارى، مرجع سابق، ص 52.

² العربي محمد أمين، العربي سكيبة، مرجع سابق، ص 55.

³ بن خيرة أحمد، غانية البشير، مرجع سابق، ص 16.

نفوسهم بعد فترة من الانقسام وهو ما انعكس في صمودهم أمام الهجوم القشتالي العنيف، ثم اندفاعهم بقوة عند لحظة الحسم. وكذلك في معركة الأرك، حرص الخليفة يعقوب المنصور على بث الروح الإيمانية في جيشه، فخطب فيهم داعياً إلى الإخلاص والتوبة، مما خلق حالة من الصفاء النفسي والتلاحم المعنوي بين الجنود، انعكست في ثباتهم رغم الخسائر الأولية، ثم قدرتهم على استعادة زمام المبادرة¹.

وفي المقابل كان لدى الطرف النصراني دافع ديني أيضاً، تمثل في الحروب الصليبية وروح الاسترداد، غير أن هذا الدافع اقترن في كثير من الأحيان بالثقة المفرطة والغرور، خاصة لدى ألفونسو، مما أثر سلباً على تقديره للموقف، وأدى إلى تسرعه في اتخاذ القرارات، كما أن انهيار الروح المعنوية لدى القشتاليين كان سريعاً عند تغير مجرى المعركة، خصوصاً عندما فوجئوا بهجمات المسلمين المضادة، فبدأت صفوفهم تتفكك رغم تفوقهم العددي². ومن خلال المقارنة يتضح أن الروح المعنوية المرتبطة بعقيدة واضحة وإحساس بالمصير المشترك كانت عنصراً مضاعفاً للقوة لدى المسلمين، إذ منحتهم القدرة على التحمل والمبادرة، بينما لم يتمكن الدافع المقابل لدى خصومهم من الصمود أمام الصدمات المفاجئة، وهو ما جعل العامل النفسي أحد أبرز مفاتيح النصر في تلك المعارك³.

¹ عدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 135.

² حامد محمد الخليفة، انتصارات يوسف بن تاشفين (400/ هـ - 1009 م / 500 هـ / 1106 م) م بطل معركة زلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، ط1، 2004، ص 64.

³ نفسه، ص 65.

المطلب الرابع: دور الجغرافيا والتحالفات

يُعدّ دور الجغرافيا والتحالفات من العوامل المؤثرة بعمق في نتائج المعارك الثلاث، إذ لم تكن ساحة القتال مجرد مسرح للأحداث، بل عنصرًا فاعلاً في صياغة مجريات المعركة، كما أن طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية بين القوى المتصارعة أسهمت بدورها في تحديد موازين القوى. فمن الناحية الجغرافية، أظهر المسلمون وعيًا استراتيجيًا واضحًا بطبيعة الأرض وأثرها في القتال، فحرصوا على اختيار مواقع تمنحهم أفضلية وتُضعف خصومهم. ففي معركة الزلاقة، لم يكن اختيار سهل الزلاقة صدفة، بل جاء ضمن خطة محكمة لاستدراج الجيش القشتالي بعيدًا عن مراكزه الحصينة، وإجباره على القتال في أرض يجهل تضاريسها، في حين كان المسلمون على دراية بها وقريبين من قواعدهم الخلفية، مما أتاح لهم سهولة الحركة والإمداد، وأمن لهم خط رجعة إن لزم الأمر. كما أن طبيعة الأرض ساعدت على إخفاء القوة الاحتياطية التي لعبت دورًا حاسمًا في قلب موازين المعركة¹.

أما في معركة الأرك، فقد تجلّى هذا الفهم الجغرافي بصورة أوضح، إذ استغل الموحدون طبيعة المنحدرات والمرتفعات لإجبار القشتاليين على النزول من مواقعهم المرتفعة، وهو ما أفقدهم ميزة الدفاع وأرهقهم بدنيًا بسبب الدروع الثقيلة التي كانوا يرتدونها. كما أن وعورة المنطقة، وخاصة في السفوح المحيطة بقلعة الأرك، ساعدت على تنفيذ خطط الالتفاف والكمائن، ومكّنت القوات الخفيفة الحركة من المناورة بفعالية، في حين حدّت من قدرة الفرسان القشتاليين الثقيلين على التحرك بحرية. ولم يقتصر أثر الجغرافيا على ساحة المعركة فقط، بل امتد إلى اختيار مواقع التمركز والاقتراب، بحيث حافظ المسلمون على قربهم من مناطقهم الحيوية، بينما توغل القشتاليون في عمق غير مألوف لهم².

¹ خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب، مرجع سابق، ص 125.

² جليل خولة، نوار نسيم، مرجع سابق، ص 100.

وفي المقابل يظهر من خلال المقارنة أن ألفونسو -في كلتا المعركتين- لم يُحسن توظيف المزايا الجغرافية المتاحة له، إذ ترك مواقعهُ الدفاعية القوية، واندفع إلى القتال في بيئات أقل ملاءمة، مدفوعاً بثقته المفرطة ورغبته في الحسم السريع، وهو ما جعله يفقد تدريجياً عناصر التفوق التي كانت بحوزته¹.

أما من حيث التحالفات فقد شكّلت عنصراً مزدوج التأثير في توجيه نتائج المعارك، إذ لم تكن مجرد عامل مساعد، بل كانت في كثير من الأحيان حاسمة في ترجيح كفة أحد الطرفين. ففي الجانب الإسلامي، مثّل توحد القوى المتفرقة -كما في تحالف المرابطين مع أمراء الطوائف في الزلاقة²، أو اجتماع الموحدين مع قوى الأندلس في الأرك- تحولاً استراتيجياً بالغ الأهمية، حيث أتاح هذا التلاقي المؤقت تجاوز حالة الانقسام السياسي التي كانت سائدة، وجمع الموارد البشرية والعسكرية في إطار قيادة واحدة أكثر انسجاماً. وقد انعكس ذلك في القدرة على تنسيق العمليات العسكرية، وتكامل الأدوار بين مختلف الوحدات، سواء في توزيع الجبهات أو في تنفيذ الخطط المعقدة مثل الكمائن والهجمات المضادة، مما منح الجيوش الإسلامية مرونة أكبر في الميدان، وقدرة على امتصاص الصدمات الأولى ثم استعادة زمام المبادرة³.

كما أن هذه التحالفات لم تكن ذات بعد عسكري فحسب، بل حملت أيضاً بعداً معنوياً وسياسياً، إذ عززت الشعور بوحدة المصير والخطر المشترك، ورفعت من الروح القتالية لدى الجنود، الذين وجدوا أنفسهم يقاتلون ضمن جبهة موحدة بعد فترات من التنازع، وهو ما أسهم في تثبيتهم في لحظات حرجة كادت أن ترجح فيها كفة العدو.

¹ رماح حليلة، نبيل قرحيلي، شيرين حمودي، دور التحالفات الملكية والدبلوماسية في تعزيز النفوذ القشتالي ألفونسو الثامن وليونور أنموذجاً (1169-1192م)، مجلد 08، عدد 03، 2025، ص 524.

² شوقي أبو خليل، الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، دار الفكر، دمشق، 1980، ص 112.

³ عدون عباس نصر الله، مرجع سابق، ص 136.

وفي المقابل، عانى الطرف القشتالي من خلل واضح في بنية تحالفاته، فعلى الرغم من محاولات ألفونسو حشد أكبر عدد ممكن من القوى النصرانية، إلا أن هذا الحشد لم يكن متماسكًا بالقدر الكافي، إذ تأخر وصول الدعم من بعض حلفائه، مثل ملوك ليون ونافارًا في معركة الأرك، كما أن تعدد القوى المشاركة واختلاف خلفياتها وتنظيماتها أدى إلى ضعف التنسيق الميداني. وقد انعكس ذلك في محدودية القدرة على إدارة المعركة بصورة جماعية متكاملة، خاصة في المراحل الحرجة التي تتطلب سرعة القرار ووحدة التوجيه¹.

إضافة إلى ذلك، فإن اعتماد ألفونسو على التفوق العددي دون بناء تحالف منسجم قائم على توزيع واضح للأدوار، جعله عرضة للتفكك عند أول اختلال في صفوفه، إذ لم تتمكن هذه القوى من الحفاظ على تماسكها عند تعرضها لهجمات مضادة مفاجئة، كما حدث في الزلاقة والأرك، حيث تحولت الكثرة العددية إلى عبء في ظل غياب التنسيق الفعال.

ومن خلال هذه القراءة المقارنة، يتضح أن التحالفات لم تكن ذات قيمة في ذاتها، بل في مدى انسجامها وفعاليتها، فحين اقترنت بوحدة القيادة وحسن التنظيم - كما في الجانب الإسلامي - تحولت إلى مصدر قوة حقيقي، أما حين انفقرت إلى التنسيق والانسجام - كما في الجانب القشتالي - فإنها لم تحقق الغاية المرجوة، بل أسهمت في إضعاف الأداء العام، وهو ما يبرز أن التحالف الفعال هو الذي يُبنى على وحدة الهدف والتنظيم، لا مجرد تجميع القوى².

¹ رماح حليلة، نبيل قرحيلي، شيرين حمودي، مرجع سابق، ص 525.

² نفسه، ص 526.

الفصل الثالث:

معارك الهزيمة في تاريخ

المسلمين بالأندلس

المبحث الأول: معركة بلاط الشهداء (114-115هـ / 732م)

المطلب الأول: ظروف المعركة (الزمان، المكان، الخلفية العامة)

بعد أن أتم المسلمون فتح الأندلس سنة 92هـ على يد القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد، بدأت تتجه أنظار القادة إلى ما وراء هذه البلاد، طمعًا في مواصلة الفتح نحو شمال أوروبا. وكان موسى بن نصير قد عزم بالفعل على المضي في هذا الاتجاه، غير أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لم يُوافق، خشية أن يغامر بالمسلمين في أراضٍ مجهولة العواقب، فبقي هذا المشروع مؤجلًا، وإن ظلّ حلمًا يراود ولاية الأندلس ومن جاء بعدهم¹.

ومع مرور الزمن، تولّى السمع بن مالك الخولاني ولاية الأندلس، فكان أول من أخذ هذا المشروع على محمل الجد، فشرع في الإعداد له إعدادًا عسكريًا منظمًا، وحشد الجيوش لغزو بلاد الغال (فرنسا). وانطلق في حملته حتى استولى على إقليم سبتمانيا، وهو منطقة استراتيجية تقع جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ثم عبر جبال البرانس، متجهًا نحو الغرب بمحاذاة نهر الجارون، حتى بلغ مدينة تولوز في التاسع من ذي الحجة سنة 102هـ².

وعند تولوز دارت معركة عظيمة بين المسلمين والفرنجة، أظهر فيها المسلمون ثباتًا كبيرًا، غير أن القائد السمع بن مالك سقط شهيدًا في أرض المعركة، فكان لمقتله أثر بالغ في اضطراب صفوف الجيش، الأمر الذي اضطر عبد الرحمن الغافقي - وكان أحد قادة الجيش - إلى اتخاذ قرار الانسحاب حفاظًا على ما تبقى من القوات.

ثم خلف السمع في ولاية الأندلس عنيسة بن سحيم الكلبي سنة 103هـ، فواصل سياسة الفتح، واستكمل ما بدأه سلفه، حيث خرج بحملة جديدة نحو فرنسا في أواخر سنة 105هـ، وتمكّن من استكمال فتح إقليم سبتمانيا، ثم توغل في الأراضي الفرنسية حتى بلغ مدينة أوتان

¹ أحمد الظرافي، جهاد المسلمين في فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء، دراسات تاريخية، العدد 463، ص 187.

² راغب السرجاني، مرجع سابق، ج3، ص 8.

الواقعة على أعالي نهر الرون، فاستولى على عدد من القلاع والحصون. غير أنه لم يُحسن تأمين طريق العودة، فتعرض لهجوم من قوات الفرنجة أثناء رجوعه، فأصيب في تلك المعركة، وتوفي متأثراً بجراحه في شعبان سنة 107هـ، فعاد الجيش الإسلامي مرة أخرى إلى أربونة في سبتمانيا.

وبعد ذلك، تولى عبد الرحمن الغافقي¹ ولاية الأندلس سنة 112هـ في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فكان على وعي بأهمية الإعداد الجيد قبل استئناف الفتح. فمكث قرابة عامين يعمل على تنظيم الأوضاع الداخلية، فطاف الأقاليم، ونظر في المظالم، وأقام العدل، وحثّ الناس على الجهاد، حتى استجاب له المسلمون من مختلف الأقاليم، وتجمّع لديه جيش كبير قُدّر بنحو مائة وسبعين ألف مقاتل. فجمعهم في مدينة بنبلونة شمال الأندلس، ثم انطلقت الحملة في أوائل سنة 114هـ، فعبرت جبال البرانس متجهة نحو الأراضي الفرنسي(بلاد الغال).

تقدّم عبد الرحمان الغافقي (صفر 112 هـ - رمضان 114 هـ / ماي 730 م / أكتوبر 732 م)² واتجه إلى الجنوب إلى مدينة "آرال" الواقعة على نهر الرون؛ لامتاعها عن دفع الجزية وخروجها عن طاعته، ففتحها بعد معركة هائلة، ثم توجه غرباً إلى دوقية أقطانيا "أكويتين"، وحقق عليها نصراً حاسماً على ضفاف نهر الدوردوني ومزّق جيشها شر ممزق، واضطر الدوق "أودو" أن يتقهقر بقواته نحو الشمال تاركاً عاصمته "بردال" (بورديو) ليدخلها المسلمون فاتحين، وأصبحت ولاية أكويتين في قبضة المسلمين تماماً، ومضى الغافقي نحو نهر اللوار وتوجه إلى مدينة "تور" ثانية مدائن الدوقية، وفيها كنيسة "سان مارتان"،

¹ عبد الرحمن الغافقي: عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وهو الغُكي، أمير الأندلس، تولاها سنة 110هـ من قبل عبيدة بن عبد الرحمن الثقفي صاحب إفريقية، واستشهد في قتال الروم بالأندلس سنة 114هـ / 732م. للمزيد انظر: الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، 1967م، ص366.

² عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، 1981، ط2،

وكانت ذات شهرة فائقة آنذاك؛ فاقتم المسلمون المدينة واستولوا عليها. وواصل تقدمه حتى أصبح جزء كبير من جنوب فرنسا تحت سيطرة المسلمين. واستمر الزحف حتى وصل إلى بواتيه، التي لم تكن تبعد عن باريس سوى مسافة قصيرة.¹

وأمام هذا التهديد، استنجد حاكم أقطانيا بشارل مارتل، حاكم الدولة الميروفنجية، رغم ما كان بينهما من خلافات، فاستجاب الأخير سريعاً، وشرع في تعبئة واسعة، فجمع جموعاً كبيرة من المقاتلين، بينهم مرتزقة ومحاربون أشداء، عُرفوا بلباسهم الغريب المصنوع من جلود الذئاب، وشعورهم المنسدلة على أكتافهم، وقد توحدت القوى النصرانية في مواجهة المسلمين، مدفوعة بشعور مشترك بالخطر الذي بات يهدد وجودها.²

المطلب الثاني: سير المعركة ونتائجها

واصل الجيش الإسلامي زحفه إلى أن وصل إلى السهل الفسيح الممتد بين مدينتي بواتيه وتور، وذلك عقب استيلائه عليهما، في وقت كان فيه جيش شارل مارتل قد بلغ نهر اللوار دون أن يتنبه المسلمون إلى اقتراب طلائعه. وعندما همّ عبد الرحمن الغافقي بعبور النهر لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى قبل أن يتم استعداداته، فوجئ بظهور جيش الفرنجة بقيادة مارتل، وهو جيش يفوق قوات المسلمين عدداً وعدة، مما اضطره إلى التراجع والارتداد إلى السهل الواقع بين بواتيه وتور. ولم يلبث شارل مارتل أن عبر نهر اللوار بدوره، ونزل بجيشه على مقربة قليلة من معسكر المسلمين، مهيناً نفسه للمواجهة الحاسمة.³

وفي هذا السهل دارت رحى المعركة بين الفريقين، غير أن الموقع الدقيق لميدانها ظل محل خلاف بين المؤرخين، وإن كانت بعض الروايات ترجح أنها وقعت بالقرب من طريق روماني يربط بين بواتيه وشاتلرو، في موضع يبعد نحو عشرين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي

¹المقري، مرجع سابق، ج 1 ص 350.

²عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 231.

³عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، ص 193.

من بواتييه، يُعرف باسم "البلاط". وهذه التسمية، التي تعني في اصطلاح الأندلسيين القصر أو الحصن المحاط بالحدائق¹، كانت سبباً في إطلاق اسم "بلاط الشهداء" على المعركة في المصادر العربية، نظراً لكثرة من استشهد فيها من المسلمين، "غير أن هذا الاختلاف لم يخرج -في عمومه- عن المنطقة الواقعة بين مدينتي تور (Tours) وبواتييه (Poitiers)، على أحد فروع نهر اللوار (Loire) وهو نهر كلين (Clain)، وتبلغ المسافة بين المدينتين نحو 90 كم؛ لذلك سُميت المعركة في الروايات الأوروبية باسم إحدى المدينتين أو كليهما"² لذلك عُرفت في المصادر الأوروبية باسم معركة "تور-بواتييه".

وبدأ القتال في أواخر شهر رمضان سنة 114هـ الموافق لأكتوبر 732م، واستمر تسعة أيام متتالية، أبدى فيها الطرفان صبراً وثباتاً دون أن يتمكن أحدهما من تحقيق نصر حاسم. وفي اليوم العاشر، اشتد القتال وبلغ ذروته، حيث أظهر الفريقان شجاعة كبيرة، وبدأت علامات الإعياء تظهر على جيش الفرنجة، فيما لاح في الأفق ما ينبئ بقرب انتصار المسلمين. غير أن مجرى المعركة تغير فجأة، عندما نجحت فرقة من فرسان الفرنجة في التسلل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، حيث كان معسكر الغنائم، فاندفعت مجموعة من فرسان المسلمين من قلب المعركة للتصدي لهذا الهجوم المباغت وحماية الغنائم. وقد أدى هذا التحرك إلى خلخلة صفوف الجيش، وحدث اضطراب في تنظيمه، واتساع الثغرة التي استغلها الفرنجة للتقدم³.

وحاول عبد الرحمن الغافقي، في خضم هذه الفوضى، أن يعيد النظام إلى جيشه، وأن يستجمع قوى رجاله ويبعث فيهم روح القتال من جديد، غير أن القدر لم يمهل، إذ أصابه سهم قاتل أوداه شهيداً في ساحة المعركة. وكان لسقوطه أثر بالغ في تفاقم الاضطراب، إذ

¹ المقري، مرجع سابق، ج 1 ص 352.

² عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، ص 194.

³ نفسه، ص 195.

عمّ الذعر في صفوف المسلمين، ولولا ما بقي فيهم من ثبات وإيمان، لوقعت كارثة أعظم أمام عدو يفوقهم عددًا¹.

ومع حلول الليل، صمد المسلمون حتى أقبل الظلام، فاستغلوا ستاره وانسحبوا انسحابًا منظمًا نحو سبتمانيا، تاركين وراءهم أثقالهم وكثيرًا من غنائمهم. وفي صباح اليوم التالي، تقدّم الفرنجة بحذر نحو معسكر المسلمين، ظانّين أن في الأمر خدعة، فلما لم يجدوا مقاومة، دخلوا الخيام فوجدوها خالية إلا من الجرحى العاجزين، فقتلوهم، واكتفى شارل مارتل بهذا النصر دون أن يُقدم على مطاردة المسلمين، فعاد بجيشه إلى الشمال من حيث أتى².

بعد نصره في هذه المعركة المفصلية تفرغ شارل مارتل وحليفه أودو لدفع المسلمين عن فرنسا، وقاتل الوثنيين في ألمانيا، خاصة بعد ظفره بالعرش الفرنجي، وانحسر المسلمون عن فرنسا وكانت آخر مواجهة بين المسلمين والفرنجة سنة 121هـ/739م³ "وقد فتت هذه الهزيمة في عضد المسلمين، وأوقفتهم عند البرتات التي أصبحت، منذ ذلك الحين، حدًا لم يتجاوزوه بعد ذلك"⁴.

وقد اختلف في أهمية المعركة على فريقين: الأول يتمثل بآراء باحثين مثل Becker في *Cambridge Medieval History*، ويرى هؤلاء أن انتصار مارتل أنقذ الغرب من العرب.

أما الثاني فنجدّه عند أمثال H. Pirenne في كتابه محمد وشارلمان ، ويقول بأن معركة بواتيه أعطيت أهمية أكبر من التي تستحقها، وأنه حتى لو انهزم شارل مارتل فيها فلن يحدث شيء سوى أن الغنائم التي سيحصل عليها العرب ستكون أكبر⁵.

¹ حسين مؤنس، فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، 2002م، ص 330

² سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية، 1998، ط1، ص36

³ المرجع نفسه، ص37.

⁴ عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص12

⁵ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دار أطلس للنشر والتوزيع، 1983، ص 31

المطلب الثالث: أسباب هزيمة المسلمين

تُعدّ أسباب الهزيمة في بلاط الشهداء من أكثر القضايا إثارة للجدل، وقد تعددت حولها التفسيرات، ويمكن عرضها في إطار الروايات المختلفة مع أدلتها والردود عليها:

1- الانشغال بالغنائم

تذهب الرواية الأوروبية إلى أن السبب المباشر للهزيمة هو انشغال المسلمين بالغنائم التي جمعوها خلال تقدمهم في بلاد فرنسا.¹ وتستند هذه الرواية إلى حادثة التفاف فرقة من الفرنجة إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، حيث كانت تُحفظ الغنائم، مما دفع بعض المقاتلين إلى ترك مواقعهم والعودة للدفاع عنها، وهو ما أحدث خللاً خطيراً في صفوف الجيش في لحظة حاسمة من القتال. ويمعن بعضهم مثل غوستاف لوبون في التركيز على مسألة الغنائم وأن الفاتحين كانوا مولعين بالغنائم وأنهم ينهبون كل بلد يمرون عليه وهذه عادة العرب على حد تعبيره²، ولا يخفى ما في هذا من الغلط والتحريف المغرض فالمسلمون ما كانوا طلاب دنيا وإنما تحذوهم الدعوة إلى الله ونشر الدين الإسلامي. ولقد تعرّضت رواية الغنائم لنقد من بعض الباحثين المعاصرين، وعلى رأسهم عبد الرحمن الحجي، الذي يرى أن حمل الغنائم إلى ساحة معركة فاصلة أمر غير منطقي من الناحية العسكرية، وأن من المعتاد أن تُودع الغنائم في المدن المفتوحة. ويستدل على ضعف هذه الرواية بأن المصادر الإسلامية لم تشر إلى نزاع داخلي حول الغنائم، لا قبل المعركة ولا بعدها، كما أشار إلى أن الروايات الأوروبية معروفة بالمبالغة، سواء في تفسير الأحداث أو في تضخيم النتائج. ومع ذلك، يبقى من الممكن أن يكون للغنائم أثر نفسي في بعض أفراد الجيش، خاصة مع كثرتها، وهو ما يجعل هذه الرواية مقبولة جزئياً لا كسبب وحيد بل كعامل مساعد.

¹حسين مؤنس، فجر الأندلس، مرجع سابق، ص 333.

²غوستاف لوبون، حضارة العرب، مؤسسة هندية للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص 326.

2- رواية العصبية القبلية والانقسام الداخلي

ترى رواية أخرى أن العصبية القبلية والانقسام الداخلي كان لهما دور في إضعاف الجيش الإسلامي، حيث تجددت الخلافات بين العرب والبربر، خاصة في ما يتعلق بتوزيع الغنائم. وقد أدى هذا التنافس إلى إضعاف وحدة الصف، وظهر نوع من التنازع الداخلي في لحظة كانت تتطلب أعلى درجات الانسجام والتماسك. ومع ذلك، فإن هذه الرواية لا تستند إلى نصوص صريحة تؤكد وقوع صراع مباشر أثناء المعركة، وإنما تُستنتج من طبيعة الظروف ومن الإشارات العامة إلى وجود خلافات سابقة، مما يجعلها تفسيراً محتملاً يحتاج إلى الحذر في اعتماده .

3- رواية الاغترار بالكثرة والانتصارات السابقة

ومن العوامل التي أشار إليها بعض الباحثين كذلك الاغترار بالكثرة والانتصارات السابقة، حيث إن الجيش الإسلامي بلغ عددًا كبيرًا غير مسبوق في تاريخ الأندلس، وحقق سلسلة من الانتصارات السريعة في جنوب فرنسا، مما قد يكون وُد شعورًا بالثقة المفرطة والاطمئنان إلى النصر. ويُعد هذا العامل النفسي مهمًا في تفسير التحولات المفاجئة في المعارك، وقد شُبّهت هذه الحالة بما وقع في غزوة حنين،¹ حين أثار الإعجاب بالكثرة في سير القتال قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25]. ورغم صعوبة قياس هذا العامل بدقة، فإنه يظل عنصرًا معتبرًا ضمن مجموعة الأسباب².

4- استشهاد القائد عبد الرحمن الغافقي

ويُجمع المؤرخون تقريبًا على أن استشهاد القائد عبد الرحمن الغافقي كان العامل الحاسم في انهيار الوضع العسكري، إذ أدى مقتله إلى اضطراب القيادة وفقدان السيطرة على

¹ راغب السرجاني ، مرجع سابق، ج3، ص8.

² سعدون نصر الله، مرجع سابق، ص 40.

مجريات المعركة، خاصة في ظل غياب قيادة بديلة واضحة في تلك اللحظة الحرجة. وقد تزامن استشهاده مع اضطراب الصفوف، مما سرّع بقرار الانسحاب، وجعل هذا العامل نقطة تحول رئيسة في نتيجة المعركة¹.

5- رواية الانسحاب التكتيكي

ومن جهة أخرى، يذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن ما حدث لم يكن هزيمة ساحقة بقدر ما كان انسحابًا تكتيكيًا منظمًا بعد مقتل القائد، مستدلين بعدم قيام الفرنجة بملاحقة المسلمين، وبقاء الجيش الإسلامي دون إبادة، ويرجح الحجي أن ما حدث أقرب إلى انسحاب تكتيكي بعد استشهاد القائد عبد الرحمن الغافقي، خاصة أن الجيش لم يُستأصل، وأن الفرنجة لم يلاحقوا المسلمين، وهو ما لا ينسجم -في نظره- مع صورة الهزيمة الساحقة التي تقدمها المصادر الأوروبية، غير أن هذا التفسير يُواجه بإشكال مهم، وهو أن توقف الفتوحات الإسلامية في تلك المنطقة بعد المعركة يدل على أن أثرها كان كبيرًا، وأنها لم تكن مجرد مناورة عسكرية عابرة، بل هزيمة ذات نتائج استراتيجية واضحة².

6- العوامل العسكرية والجغرافية

ولا يمكن إغفال العوامل العسكرية والجغرافية فمن أسباب هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء وعورة المسالك التي مروا بها حيث لم يحاول والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي أن يكسب صداقة الدوق اودو بل لم يعمل على إيقافه على الحيادة، وإنما عبر جبال البرت من ممرات وونسفاله وزحف مباشرة إلى قلب بلاد أودو الذي اضطر إلى طلب العون من مملكة الفرنجة المجاورة، أما في معركة بلاط الشهداء فكانت وعورة الأرض سببا في هزيمة المسلمين، وكانت جبال البرانس هي الحد الطبيعي بين مملكة الفرنجة والمسلمين في الأندلس، ولقد كان للجبال دورا متباينا في معارك فتح بلاد الأندلس، تارة تكون حامية لهم وملجأ في

¹ عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 15.

² أحمد بدر، مرجع سابق، ص 34.

حركة فتوحهم كاحتماء طارق بن زياد بالمرتفعات الجنوبية في معركة وادي لكة، وتارة أخرى يعتصم بها جيش العدو ويصعب على المسلمين اختراقها وذلك لشدة وعورتها، أو تكون عائقاً لحركة الجيش ومناوراته مثلما حدث في معركة بواتيه.¹

إذ كان الجيش الإسلامي يقاتل في عمق أراضٍ بعيدة عن قواعده في الأندلس، مما صعب عليه مسألة الإمدادات والدعم، فضلاً عن كونه يقاتل في بيئة جغرافية غير مألوفة مقارنةً بخصمه الذي كان أكثر درايةً بطبيعة الأرض. كما أن شارل مارتل استطاع تنظيم قواته بشكل فعّال، مستفيداً من هذا العامل، وهو ما منحه ميزة إضافية في إدارة المعركة.

المبحث الثاني: معركة الخندق في الأندلس (327 هـ - 939م):

تُعد معركة الخندق (Batalla de Alhandic) التي وقعت في شوال سنة 327 هـ الموافق أغسطس 939م واحدة من أعنف المعارك التي دارت بين الدولة الأموية في الأندلس وممالك الشمال النصرانية، وذلك على الرغم من أن المصادر اختلفت في تحديد موقعها الدقيق: فمن قائل إنها وقعت على أسوار قلعة شنت منكش، ومن قائل إنها دارت على أسوار قلعة سمورة. وقد مثلت هذه المعركة منعطفاً خطيراً في مسيرة الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي لم يخرج بعدها في أي غزوة.²

المطلب الأول: ظروف وسياق المعركة

1. توطيد الناصر للدولة الأموية

عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم الدولة الأموية في الأندلس سنة 300 هـ، كانت سلطته لا تتجاوز قرطبة وبعض المناطق المجاورة لها. غير أنه تمكن خلال عقدين من الزمن من إخضاع جميع التمردات في أنحاء الأندلس، وأعاد تنظيم دولته داخلياً حتى أصبحت دولته

¹ شوقي أبو خليل، بلاط الشهداء، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1413 هـ / 1993م، ص 51

² محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج 1 ص 418.

مهيبة الجانب. وكانت العلاقة بين الأمويين وجيرانهم من الممالك النصرانية علاقة شد وجذب تتأرجح فيها المناطق الحدودية وفقاً للقدرات العسكرية للقوتين المتنافستين¹.

2. الاستعداد للحملة

في إطار الصراع المستديم، قرر عبد الرحمن الناصر سنة 327 هـ مهاجمة المدن التي تمثل الحاجز الدفاعي لأراضي مملكة ليون وأستورياس، ومن بينها مدينة سمورة. أرسل الناصر كتبه إلى ولاياته لجمع المتطوعين لقتال أهل جليقية²، فوافته الجموع من شتى أرجاء مملكته حتى فاقت جموعه 100 ألف مقاتل³، مما أدخل روح الثقة في نفسه حتى أنه سمّاها "غزة القُدرة"⁴، وجعل قيادة جيشه للقائد نجدة بن حسين الصقلبي⁵.

ذكر ابن حيان القرطبي في المقتبس من أنباء الأندلس أن جيش الناصر خرج من قرطبة للغزو في يوم الجمعة 22 شعبان سنة 327 هـ (أول يونيو سنة 939 م)، وبلغ طليطلة في 23 رمضان سنة 327 هـ، وعبر نهر دويرة ومر بحصن شنت منكش في 29 رمضان 327 هـ وافتتحه.

3. استعداد الجانب النصراني

في تلك الأثناء، كان راميرو الثاني ملك ليون قد جمع حشوداً ضخمة بالقرب من سمورة، وقد انضمت إليه تودا النافارية وصية عرش مملكة نافارا وفرنان غونثالث كونت قشتالة في قواتهما، إضافة إلى حليفه أمية بن إسحاق القرشي الثائر على سلطة عبد الرحمن الناصر في شنترين، والذي زوّد راميرو بنصائح ومعلومات ثمينة عن قدرات جيش المسلمين.

¹ عبد المجيد نعنعي، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس - التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص342

² محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج1 ص415

³ المقرئ، مرجع سابق، ج1 ص355

⁴ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة - دار الكتاب

الليباني، بيروت، 1989، ص137

⁵ محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج1 ص413.

المطلب الثاني: سير المعركة ونتائجها

1. روايات سير المعركة

تضاربت الروايات حول كيفية سير الأحداث نقل المقرئ في *نفح الطيب* رواية المسعودي أن عبد الرحمن الناصر اخترق أراضي مملكة ليون حتى بلغ مدينة سمورة الحصينة، فحاصرها في شوال سنة 327 هـ، وتمكّن جيشه من تجاوز سورين من أسوارها السبعة التي يفصلها عن بعضها البعض خنادق مائية، إلا أن الإعياء لحق بالمسلمين لمناعة الحصن، فهاجمهم جيش راميرو بقوة، فاختلفت صفوف المسلمين، وهزموا هزيمة شديدة، وقتل منهم نحو أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً.

أما رواية ابن حيان القرطبي المنقولة عن عيسى بن أحمد الرازي، فتفيد أن الناصر وصل طليطلة في 23 رمضان، ثم خرج إلى قشتالة في 5 شوال، فاجتاحها أياماً، فوجد معظمها خالياً من أهلها، تاركين ورائهم الكثير من الغنائم، فاستولى عليها المسلمون. سبقت قوات محمد بن هاشم التجيبي قوات الناصر، وعبرت نهر بيسرغة عند شنت منكش، فاستدرجت قوات راميرو المسلمين بالانسحاب، ثم هاجمت المسلمين. وفقاً لابن حيان، فقد حقق المسلمون انتصاراً في البداية، لكنهم أعادوا ترتيب صفوفهم وهاجموا المسلمين، فانهمز المسلمون وقتل منهم الكثير وسقط محمد بن هاشم أسيراً.¹

أما الروايات الغربية، فقد أورد ألفونسو الحكيم في *التاريخ العام* أن عبد الرحمن الناصر وابن يحيى حاكم سرقسطة هاجما بجيش ضخم مملكة ليون حتى بلغا شنت منكش²، فخرج راميرو بجيشه لقتالهم، وهزم المسلمين، وقتل منهم ثمانين ألفاً، وأسر ابن يحيى³، كما نقل رينهارت دوزي ويوسف أشباخ أن المعركة انتهت بهزيمة ساحقة لجيش المسلمين ومقتل القائد نجدة الصقلي وأسّر محمد بن هاشم التجيبي وإصابة عبد الرحمن الناصر بجروح بالغة.

¹ محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج 1 ص 417.

² المقرئ، مرجع سابق، ج 1 ص 357.

³ عبد المجيد نعنعي، مرجع سابق، ص 344.

2. نتائج المعركة

كانت خسائر المسلمين البشرية في تلك المعركة كبيرة، تراوحت في بعض التقديرات بين 40,000-50,000 رجل، من بينهم قائد جيش المسلمين نفسه نجدة بن حسين الصقلبي، كما أُسر القائد محمد بن هاشم التجيبي والي سرقسطة، وظلّ في الأسر لأكثر من عامين حتى افتداه عبد الرحمن الناصر بالمال.

كان للمعركة أثرها الشعبي السيء على العامة في أرجاء الأندلس، مما استدعى أن يستصدر الخليفة بياناً كتبه الوزير عيسى بن فطيس وهو في مدينة وادي الحجارة، وأمر بتلاوته على العامة في ربوع الأندلس. برر عبد الرحمن الناصر في بيانه أسباب الهزيمة إلى كمين تعرضت له ساقه جيشه إثر مرور الجيش في طريق عودته على وادٍ وعر الطريق ضيق المسالك، نافياً بذلك أن تكون الهزيمة بسبب خسارة حدثت في ميدان قتال.

أورد لسان الدين بن الخطيب في كتابه "أعمال الأعلام" بأن الناصر أمر قبيل وصوله إلى قرطبة أن تقام المصالب على ضفة نهر الوادي الكبير، وما كاد يصل إلى قرطبة حتى قبض على نحو 300 فارس، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم: "هذا جزاء من غش الإسلام، وكاد أهله، وأخل بمصاف الجهاد". كان أبرز هؤلاء المعدومين فرتون بن محمد الطويل، الذي فرّ برجاله من ميدان المعركة¹.

3. تعافي الناصر من الهزيمة

تعافى الناصر سريعاً من آثار الهزيمة، وأطلق حملة أخرى يقودها القائد أحمد بن يعلى على بعض نواحي مملكة ليون حقق مغنم مادية، وأسر نحو 200 من جيش راميرو². أما قائده محمد بن هاشم التجيبي فقد افتداه عبد الرحمن الناصر بالمال وأعادته إلى قرطبة في صفر سنة 330 هـ وأعلى مراتبه.

¹ أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، ص71

² لابن عذاري، مرجع سابق، ج2 ص210.

المطلب الثالث أسباب هزيمة المسلمين

1. السياسة العسكرية للخليفة

رَجَّح مؤرخون معاصرون مثل محمد عبد الله عنان وعبد المجيد نعنعي أنه من الأسباب المباشرة لهزيمة الناصر في المعركة، سياسته في الاعتماد على الصقالبة في المناصب الهامة والقيادية في الجيش على حساب نظرائهم من العرب والبربر¹. فقد جعل قيادة جيشه للقائد نجدة بن حسين الصقلبي، مما أثار حفيظة القادة العرب والبربر الذين تخاذلوا عن القتال مثلما أشارت بعض الروايات الغربية².

2. طبيعة أرض المعركة

ذكر الناصر نفسه في بيانه أن السبب الحقيقي للهزيمة لم يكن هزيمة في ميدان القتال، وإنما كمين تعرضت له ساقية الجيش بسبب "ضيق المسالك، ووعر الطريق، وسوء فهم الدليل". فقد حوَّصر جيش المسلمين بين قوات راميرو وخندق عميق، فسقط الكثير منهم فيه.

3. العامل النفسي والثقة المفرطة

كان الناصر قد فوّت الجموع من شتى أرجاء مملكته حتى فاقت جموعه 100 ألف مقاتل³، مما أدخل روح الثقة في نفسه حتى أنه سمّاها "غزاة القُدرة". هذه الثقة المفرطة جعلته غير مستعد للمفاجآت التي واجهها في الميدان.

على الرغم من هزيمة الناصر في معركة الخندق، إلا أنه استطاع التعافي سريعاً من آثارها، وأدرك عدم مواءمة سياسة الاعتماد على الصقالبة لحكمه عندئذ، فلجأ إلى اتخاذ سياسة جديدة نحو أمراء الثغر الأعلى من العرب والمولدين بتقليدهم شئون مدنهم، وإطلاق أيديهم للدفاع عن مدنهم⁴. أما على الجانب الآخر، فلم يتمكن راميرو الثاني من استثمار

¹ عبد المجيد نعنعي، مرجع سابق، ص 346-347.

² نفسه، ص 348.

³ سعدون نصر الله، مرجع سابق، ص 42.

⁴ محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ج 1 ص 421.

الموقف وتطويره لصالحه، بعد أن واجه تمرّدًا داخليًا على حكمه من قبل فرنان غونثالث كونت قشتالة ودييغو مونوث كونت سلدانيا، مما دعاه إلى طلب معاهدة جديدة مع عبد الرحمن، وهو ما قبله الأخير¹

المبحث الثالث: معركة حصن العقاب (609 هـ-1212م)

تُعد معركة حصن العقاب من أعظم المعارك الفاصلة في تاريخ الغرب الإسلامي، حيث مثلت نقطة تحول حاسمة في مسار الوجود الموحيدي في الأندلس والمغرب. وقعت المعركة في يوم الاثنين 15 صفر سنة 609 هـ² الموافق 16 يوليو 1212م، وقد وصفتها المصادر بأنها " الرزية العظيمة"³ و"الهزيمة العظمى" التي كانت سبباً في هلاك الأندلس⁴. ارتبطت بهذه المعركة تداعيات سياسية كبيرة، قوضت أركان الدولة الموحدية .

المطلب الأول: ظروف المعركة وسياقها التاريخي

1- التعريف بالمعركة

تسمى المعركة "حصن العقاب" (بكسر العين)، وهو موضع "بين جيان وقلعة رباح"⁵، وقرب حصن يسمى "حصن سالم"⁶. وتُعرف المعركة في النصوص النصرانية باسم "لاس نافاس دي تولوسا" (Las Navas de Tolosa)، وهو اسم لا يزال يطلق حتى اليوم على ضيعة صغيرة تسمى "تولوزا" (Tolosa) في سفح جبل الشارات شمال شرقي بلدة "لا كارولينا" (Santa Carolina).

2- السياق التاريخي للمعركة

¹ المرجع نفسه، ج 1 ص 422

² عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 236

³ السلاوي، مصدر سابق، ج 2، ص 224

⁴ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 3، ص 377

⁵ الحميري، الروض المعطار، تحقيق: احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980، ص 416

⁶ عبد الواحد المراكشي، مرجع سابق، ص 235

وصل الخليفة الناصر سنة 607 هـ خبر نقض الهدنة التي بينه وبين ألفونسو الثامن، فأنبه وأقلق الأمر، واستشار الشيخ أبا محمد بن أبي حفص فلم يشجعه لكن الخليفة خالفه، وبلغ الصبي ببلاد المسلمين ثم جاز إلى الأندلس حيث استقبل بحفاوة وأقام بطريف ثلاثة أيام واستقر بإشبيلية بحشوده الهائلة.

واصل الخليفة استنفاره لعامة المسلمين متجهان بهم نحو مدينة "جيان" سنة 609 هـ، ليستكمل تعبئة عساكره فتصل إليه أنباء سقوط قلعة رباح، التي كان عليها رجل من خيرة القادة الأندلسيين يدعى أبو الحجاج يوسف بن قاسم.

المطلب الثاني: مجريات المعركة ونتائجها:

1- التنظيم والتمهيد للمعركة

بعد أن أخذ الجيشان أماكنهما في المواقع التي احتلواها، سارع كل معسكر إلى تنظيم جيشه استعدادًا لخوض المعركة الوشيكة. وقد تركت لنا الرواية النصرانية تفاصيل كثيرة عن تنظيم الجيش النصراني، فقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يتزعم كل قسم منها ملك من ملوك النصارى الإسبان. فتولى ألفونسو الثامن ملك قشتالة قيادة قلب الجيش مع احتفاظه بالإشراف العام، وتألّف القلب من أربع فرق: فرقة الجبليين القشتاليين، وفرقة فرسان قلعة رباح وشن ياقب والداوية والإسبانية، وفرقة فرسان قشتالة القديمة وأشتوريس والسكونية، وفرقة الاحتياط من طليطلة وبعض قوات ليون. أما الجناح الأيمن فكان على رأسه سانشو السابع ملك نافارا، وتألّف من فرسانه ومن جند سارية وسقوبية ومدينة سالم والفرسان الفرنسيين وجند جليقية والبرتغاليين. والجناح الأيسر تولاه بيدرو الثاني ملك أراغون، وضم أربع فرق من العساكر الأراغونية وبعض رحالة قشتالة.¹

1 يوسف أشباح، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996م، ج2، ص117

أما الجيش الإسلامي الموحد، فقد قسم إلى خمس فرق كبيرة: تألفت الفرقة الأمامية من قوات المتطوعة من مختلف الطوائف، وقدرتهم الرواية الإسلامية بمائة ألف مقاتل. والفرقة الثانية كانت ميمنة الجيش وتكونت من القوات الأندلسية. والفرقة الثالثة كانت ميسرة الجيش واصطفت فيها القوات البربرية. وأما الفرقتان الرابعة والخامسة فكانتا تمثلان القلب والقوات الاحتياطية، وتوجد بهما صفوة الجيش من الجند الموحد.¹

2- بداية المعركة

بين قلب الجيش الموحد ومؤخرته، نصبت قبة الخليفة الناصر التقليدية الحمراء، وأمامها وضع جواده المسرج، وكان الخليفة يحيط به حرسه الخاص من الفرسان والمشاة من الحرس الخلفي، وأغلبهم من العبيد السودانيين بأيديهم الرماح الممدودة. ومدت حول الخليفة قبة دائرية من السلاسل الحديدية القوية، حتى أصبح الخليفة وكأنه يجلس في حصن منيع. وكان بوسع النصارى الذين يتركزون في الربي العالية أن يروا أعداد القوات الإسلامية التي لا تحصى وقبة الخليفة الحمراء. وما إن انتظمت الجيوش حتى تباوت أصوات الطبول والأبواق من الجانبين، فارتجت لها الربي والسهول، وإذا بالخليفة الناصر يخرج من قبته وعليه عباءته فرغ المصحف بيده والسيف بالأخرى إشارة للهجوم.²

بدأت المعركة في الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة 609هـ الموافق 16 يوليو سنة 1212م. وكان كل من الجيشين على أهبة الاستعداد، حيث بادرت القوات الإسلامية بالهجوم عن طريق الجنود المتطوعة الذين ارتطموا بالجنود القشتاليين وجموع الفرسان. واشتبك الفريقان في معركة حامية، وتحرك الجناحان في كل من الجيشين تجاه بعضهما حتى غدت المعركة عامة.³

1 محمد عبد الله عنان: مرجع سابق، ج3، ق2، ص309

2 ابن أبي زرع: مصدر لسابق، ج2، ص158

3 محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص311.

كان هجوم قوات المتطوعة شديداً في البداية، ومع ذلك لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين، والأكثر من ذلك أن قوات المتطوعة لم تستطع الحفاظ على ثباتها حيث ارتدوا تحت ضغط النصارى واستشهد ألوف منهم¹. يقول صاحب الروض القرطاس في ذلك: "أنهم لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا على آخرهم وعساكر الموحدين والعرب وقوات الأندلس ينظرون إليهم ولم يتحرك منهم أحد".²

بذلك استطاعت القوات النصرانية أن تخترق فرقة المتطوعة حتى وصلت إلى قلب الجيش الإسلامي الذي كان يتألف من قوات الجند الموحدية النظامية وهي صفوة الجند، حيث لقوا أشد مقاومة وارتدت القوات النصرانية فارين، وبذلك صدت هجمة النصارى. ومن جهة أخرى، استطاعت ميمنة وميسرة الجيش الموحدى بعد قتال عنيف أن ترد جناحي الجيش النصراني.

لما رأى ملك قشتالة ألفونسو الثامن من الربى التي كان يتمركز عليها تطور المعركة على هذا النحو السيئ من تراجع القوات النصرانية في القلب والجناحين وما ينذر به من هزيمة محققة، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والظليطيين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة. وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة: "أن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد". لكن اعتراضات المطران وكبار قاداته ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار. وفي الوقت نفسه، أطلقت القوات المدد المدربة لإنقاذ الجيش المرتد، وسار القادة بأنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة وهم يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح والعذراء، مما أثار أعظم الحماسة في نفوس الجند. وكان لهذا أثر كبير، فعادت من جديد الكفة للنصارى حيث نظمت صفوف القوات

¹ راغب السرجاني: المرجع السابق، ج2، ص616

² ابن أبي زرع: المصدر السابق، ج2، ص158

النصرانية واستأنفوا زحفهم وهم يحطمون كل مقاومة باتجاه قلب الجيش الإسلامي حيث كان الخليفة الناصر وحرسه.¹

وفي ظل تلك التطورات، دفع ألفونسو الثامن وقواته إلى الصف الأمامي، وتبعه في نفس الوقت ملكا أراغون ونافارارا كل في قواته نحو جناحي الجيش الإسلامي، وهجمت القوات النصرانية كلها في وقت واحد بمنتهى الشدة والعنف، حتى بدأت ميمنة وميسرة الجيش الإسلامي في الارتداد تحت ضغط الفرسان النصارى وفرت القوات الأندلسية والعرب، وأحدث فرارهم اضطراباً عظيماً في الجيش الإسلامي.

صوب النصارى كل هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التي احتشدت حولها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين حرابهم، ولم يصمد في هذا القتال سوى الجند الموحدين وحرس الخليفة من السود والمغاربة، حيث صمدوا في مقاومة هجمات النصارى وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة. واستطاع النصارى أن يخرقوا قلب الجيش الإسلامي إلى دائرة الحرس الخلفي، فرددتهم قوات الحرس ببسالة.²

لكن في النهاية استطاعت قوات النصارى أن تخترق الدائرة المدرعة، ودخلت الفرسان القشتالية وكذلك قوات أراغون ونافارارا كل من ناحيته، وبذلك مزق الجيش الموحي من كل ناحية، وكثر القتل فيه كثرة مروعة. تذكر الرواية الإسلامية أن الخليفة الناصر مكث في مجلسه الحرج إلى آخر لحظة وهو يحث جنده على الصمود، وتنوه كل الروايات بثبات الناصر وصموده اليأس في تلك اللحظة الرهيبة التي تتأثر فيها جيشه وحرسه. وبقي الناصر في مكانه حتى كادت الروم أن تصل إليه بل كاد أن يهلك، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستوصلت جموع الجيش الموحي كلها قتلاً وأسراً.³

¹ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج3، ق2، ص311-312

² راغب السرجاني، مرجع سابق ج2، ص615

³ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ج2، ص159

اضطر الناصر في آخر لحظة أن يمتطي صهوة فرس قدمها إليه أعرابي كان إلى جانبه بعد أن نبأه بقرار جنده وناشده أن لا يقعد بعد، وقال الناصر: "صدق الرحمان وكذب الشيطان".¹ وفر الناصر مع نفر من خاصته على جناح السرعة إلى بياسة، لكنه لم يقف بها بل سار منها إلى إشبيلية.

كانت فلول الجيش الموحي حينئذ تفر في كل ناحية، ومن ورائهم فرسان النصارى يمعنون فيهم قتلاً وإفناءً، واستمرت هذه المطاردة المروعة حتى دخول الليل. وقبل مغيب الشمس، كان ملوك النصارى والمطران والأساقفة وجزء كبير من الجيش النصراني قد دخلوا محلة الجيش الموحي واستقروا بها. وأضحى الجيش الإسلامي العظيم الذي كان بها منذ ساعات أثرًا بعد عين.²

3- نتائج المعركة

مثلت معركة العقاب منعطفًا خطيرًا في تاريخ الدولة الموحدية، إذ كانت نقطة تحول حقيقية من دور القوة والهيبة العسكرية إلى دور الضعف والانهايار التدريجي. فقد وصفها النويري في "نهاية الإرب" بأن الموحدين قتل منهم خلق كثير، وأكد ابن عذاري أن هذه الواقعة الشنيعة كان فيها قتل عظيم. أما على صعيد هيبة الدولة، فيذكر "الاستقصا" أن هذه الرزية العظيمة ذهبت بقوة المسلمين في المغرب والأندلس من يومئذ، ولم تنصر لهم بعدها راية، كما أكد ابن أبي زرع أن هذه الواقعة كانت أول وهن دخل على الموحدين، فلم يبق بعد ذلك لأهل المغرب قائمة. ويخلص المستشرق روجي لو تورنو إلى أن إمبراطورية الموحدين اهترت من جذورها اهترازًا عميقًا، بينما تؤكد الدراسات الحديثة أن نتائج المعركة السلبية ساهمت في

¹ السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص224

² محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج3، ص312

القضاء على الوجود الموحدى بالأندلس، وإضعاف أركان الدولة في حاضرتها المغربية، مما أدى في نهاية الأمر إلى زوال حكم آل عبد المؤمن من الغرب الإسلامي¹.
 لم تكن الخسائر البشرية في معركة العقاب مجرد أرقام عابرة، بل كانت كارثة ديموغرافية حقيقية غيرت تركيبة السكان في المغرب والأندلس لعقود. وقد ذكر ابن أبي زرع تفصيلاً للأعداد: الرجال المحشودون ثلاثون ألفاً، ومجموع العبيد ثلاثون ألفاً، والرماة والأغزاز عشرة آلاف، مؤكداً أن القتل استأصل المسلمين حتى فنوا جميعهم. أما المقري في "نفتح الطيب" فقد ذكر أن هذه المعركة كانت سبب ضعف المغرب والأندلس، فخلت المغرب من كثير من قراه وأقطاره، وصار الإنسان يجول فيها فلا يصادف شاباً قادراً على القتال. وإلى جانب الخسائر البشرية، تسببت المعركة في موجات هجرة واسعة طواعية وقسرية من الأندلس والمغرب، مما وهن السلطة السياسية وأعطى الفرصة لتقدم وتكثيف نشاط حركة الاسترداد النصرانية، التي استغلت الفراغ الديموغرافي والسياسي لاستكمال زحفها نحو الجنوب².

المطلب الثالث: أسباب هزيمة المسلمين

تعددت أسباب الهزيمة في معركة العقاب على الموحدين، ويمكن تصنيفها إلى أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة، وإلى أسباب سياسية وعسكرية وبشرية.

1- الأسباب المباشرة

1. الانشغال بالفتن الداخلية

من الأسباب المباشرة "انشغال الموحدين المفرط بمواجهة المناوئين الداخليين (القبائل) والخوارج (ثورة بني غانية)، وما ترتب عنه من إهلاك للقوى العسكرية المادية والبشرية للجيش على المدى البعيد". فقد أثرت هذه الصراعات الداخلية على استعداد الجيش الموحدى

1 أحمد كرعى ووليد بورويس، دراسة في أسباب الهزيمة والتداعيات، مذكرة ماستر عن جامعة يحيى فارس بالمدينة، إشراف توفيق مزاري عبد الصمد، ص 45.

2 هجيرة عمراوي، معركة حصن العقاب (609هـ/1212م): أثرها السياسي والديموغرافي على الوجود الموحدى بالغرب الإسلامي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج9، ع 2، جوان 2024، ص ص 115-137

وتجهيزاته. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن "حرق مدونة الإمام مالك مثلاً عدّها صاحب بيوتات فاس الكبير سبباً في انقراض دولته بتسليط الله النصارى على الموحدين، فهم زموهم يوم العقاب وكانت مشؤومة عليهم وعلى المسلمين".¹

2. مشكلة الإمداد والتموين

تبين أن عملية تموين الجيش كانت دون المستوى المطلوب، إذ يرجح أن "المسافات الطويلة بين خطوط التموين والقوات العسكرية هي التي تعيق العملية، سيما وأن الأعداد كبيرة حسب الروايات". كما أن حصار قلعة شلبطرة استغرق مدة طويلة، حيث "أقام على ذلك الحصن ثمانين شهر فنيث فيها أزواد الناس وقلت علوفاتهم وقلت عزائمهم وفسدت نياتهم وانقطعت الأمداد عن المحلة فغلت بها الأسعار ودخل فصل الشتاء فأشتدّ البرد وأصاب المسلمين كل ضرر"²

3. سوء القيادة والتخطيط

تحدثت بعض المصادر عن امتلاك وزير الموحدين نوايا غير واضحة أو مشبوهة، حيث يُشك في صدق نيته، حينما أشار على الخليفة الناصر فكان أسوء تدبير يقدم عليه وزير ويستجيب له الأمير، "قالوا وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر فأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه وأنفرد هو به فكان يُشير على الناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف"³. وقد أضيف إلى ذلك "حادثة القائد الأندلسي ابن قادس وأمر إعدامه طعناً بالرماح الصادر من الخليفة الناصر شخصياً، والتي تعكس غياب الحكمة عنه عكس سلفه المنصور في معركة الأرك". كما أنه اغتر بكثرة الجيش كما يقول المقري "وقد جمع جمعاً اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب "الذخيرة السنينة

1

2 السلاوي، مصدر سابق، ج2، ص 222

3 السلاوي، مصدر سابق، ج2، ص 221

في تاريخ الدولة المرينية" ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش"¹، إضافة إلى الفساد الإداري الذي حال دون عطاء الجند في الوقت المناسب، مما جعلهم يبرزون للقتال وهم كارهون له، فيورد عبد الواحد المراكشي أن تأخر صرف العطاء في عهد محمد الناصر إلى تدمر الجنود وسخطهم على الوزراء، فخرجوا إلى المعركة وهم غير متحمسين للقتال. ونتيجة لذلك، تقاعس كثير منهم عن الاشتباك فعلياً، فلم يقاتلوا بجدية، بل تعمد بعضهم الانسحاب².

2- الأسباب غير المباشرة والبعيدة

1. المهادنة وتضييع نصر الأرك

لم يُحسن الموحدون استثمار انتصارهم في معركة الأرك، رغم ما حققوه من مكاسب عسكرية؛ إذ لم يُقدم الخليفة المنصور على فتح طليطلة، واكتفى بتخريب ضواحيها ثم الانسحاب، كما أطلق سراح الأسرى واستجاب لطلب الهدنة من ألفونسو، وهي قرارات وُصفت بأنها أضعفت فرصة تاريخية لإحكام السيطرة على الأندلس. وقد أتاح ذلك للممالك النصرانية فرصة لإعادة تنظيم صفوفها وتقوية جبهتها الداخلية، مما مكنها لاحقاً من خوض معركة العقاب في ظروف أفضل.

2. التعدد العرقي وتأثيره في تماسك الجيش الموحد

عمل الموحدون على فصل تشكيلة جيشهم وفق معايير عرقية وقبلية، ثم شرعوا لاحقاً في احتواء عناصر جديدة انضمت إليهم بناءً على مبادئ عقدية قبلية جهادية. غير أن هذا التنوع الذي كان يُظن في بداية الأمر أنه مصدر قوة وإثراء للجيش، تحول إلى نقمة كبرى ونقطة ضعف خطيرة عندما تخاذلت بعض هذه العناصر عن القتال في لحظات الحسم.

3. التخاذل وسوء المعاملة

¹ المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 383

² عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 236

لقد كان "توزيع الجيش على وحداته العنصرية" سبباً في تفكك التماسك القتالي. وقد أشارت المصادر إلى أن "المتطوعة استشهدوا عن آخرهم... وقواد الأندلس ينظرون"، مما يعكس حالة التخائل التي أصابت القيادة الأندلسية جراء سوء المعاملة. "وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيات"¹، فكان لذلك أثر بالغ في نتيجة المعركة.

وهكذا، فإن معركة حصن العقاب تمثل نموذجاً تاريخياً لانهايار قوة عسكرية كبرى بسبب تراكم الأخطاء الداخلية، بالتوازي مع نهوض الخصم واستفادته من تلك الأخطاء، مما أدى إلى تغير عميق في ميزان القوى في الأندلس.

المبحث الرابع: أسباب الهزيمة من المعارك الثلاث (دراسة تحليلية مقارنة)

المطلب الأول: وحدة القيادة والشرعية السياسية

تعد قضية القيادة من أخطر العوامل المؤثرة في نتيجة المعارك، وقد تجلت مظاهر الخلل فيها بشكل متفاوت في المعارك الثلاث. ففي معركة بلاط الشهداء، كانت القيادة واضحة ومعتزفاً بها للقائد عبد الرحمن الغافقي، إلا أن المشكلة الجوهرية تمثلت في الغياب التام لخطة لخلافته بعد استشهاده في ساحة المعركة. هذا الفراغ القيادي المفاجئ أدى إلى اضطراب حاد في صفوف الجيش وفقدان السيطرة على مجريات القتال في لحظة حساسة، وهو ما حول ما كان يمكن أن يكون انسحاباً تكتيكياً إلى هزيمة ذات نتائج استراتيجية وخيمة. وإلى جانب ذلك، كانت هناك خلافات كامنة بين العرب والبربر، وإن لم تتفجر بشكل صريح أثناء المعركة، إلا أنها شكلت عامل ضعف مستتراً في وحدة الصف.

أما في معركة الخندق، فقد اتخذ الخلل شكلاً مختلفاً تماماً، حيث أصدر الخليفة عبد الرحمن الناصر قراراً مصيرياً باعتماد سياسة عسكرية تقوم على تولية القادة من الصقالبة

¹ المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 383

على حساب نظرائهم من العرب والبربر. فجعل قيادة جيشه للقائد نجدة بن حسين الصقلبي، مما أثار حفيظة القادة العرب والبربر الذين تخاذلوا عن القتال كما أشارت بعض الروايات الغربية. لم تكن المشكلة هنا في غياب قائد، بل في وجود قائد فقد الشرعية المعنوية في عيون جزء كبير من جيشه، وهو ما انعكس سلبيًا على التماسك القتالي والاستجابة للأوامر في ميدان المعركة.

وفي معركة العقاب، بلغت أزمة القيادة ذروتها على عدة مستويات. فقد تمكن وزير الموحدين أبو سعيد بن جامع من النفوذ إلى الخليفة الناصر وأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وأصحاب الرأي والحنكة عنه، وانفرد هو بالتدبير، فكانت آراؤه سببًا في الضعف والتراجع. والأسوأ من ذلك أن الخليفة الناصر أقدم على حادثة إعدام القائد الأندلسي ابن قادس طعنًا بالرمح، وهو ما عكس غيابًا واضحًا للحكمة، خاصة بالمقارنة مع سلفه المنصور في معركة الأرك الذي كان أكثر حنكة وتبصرًا. ونتيجة لهذا التوجه، استخف الناصر ووزيره برجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج، فشنق بعضهم وفسدت النيات، مما جعل القيادة الأندلسية تنتظر إلى استشهاد المتطوعة دون أن تقدم على القتال بجدية. ومن هنا نخلص إلى أن انهيار وحدة القيادة يأتي إما بغياب خطة الخلافة بعد استشهاد القائد، أو بسوء اختيار القيادات الفرعية وإثارة النزعات، أو بانعدام العدالة في التعامل مع الفصائل المختلفة داخل الجيش. وقد وردت جل هذه الأسباب السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ 152﴾ [آل عمران: 152]، ففي هذه الآيات يخبرنا الله عز وجل أن الفشل والتفريق والتفكير في المصالح الدنيوية أسباب للبلاء والهزيمة.

المطلب الثاني: الكفاءة العسكرية والتخطيط الاستراتيجي

تتجلى الكفاءة العسكرية في القدرة على التخطيط السليم للقتال، وإدارة الإمدادات، واستثمار الانتصارات السابقة. وللأسف، عانت المعارك الثلاث من قصور واضح في هذا المجال. ففي بلاط الشهداء، يرى بعض الباحثين المعاصرين مثل عبد الرحمن الحجي أن ما حدث كان أقرب إلى انسحاب تكتيكي بعد استشهاد القائد، مستدلين بعدم قيام الفرنجة بملاحقة المسلمين وبقاء الجيش دون إبادة. لكن هذا التفسير يواجه إشكالاً مهماً، وهو أن توقف الفتوحات الإسلامية في تلك المنطقة بعد المعركة يدل على أن أثرها كان كبيراً، وأنها لم تكن مجرد مناورة عسكرية عابرة. وقد ساهمت وعورة الأرض بشكل كبير في إعاقة حركة الجيش ومناوراته، إذ كان الجيش الإسلامي يقاتل في عمق أراضٍ بعيدة عن قواعده في الأندلس، مما صعب مسألة الإمدادات والدعم.

أما في معركة الخندق، فالمذهل أن الناصر نفسه ذكر في بيانه أن السبب الحقيقي للهزيمة لم يكن هزيمة في ميدان القتال المباشر، وإنما كمين تعرضت له ساقية الجيش بسبب ضيق المسالك ووعر الطريق وسوء فهم الدليل. فقد حوَصر جيش المسلمين بين قوات راميرو وخندق عميق، فسقط الكثيرون فيه. هذا يظهر ضعفاً استراتيجياً فادحاً في عملية الاستطلاع وتأمين خطوط الانسحاب والمؤخرة، وهو أمر غير مقبول لجيش بهذا الحجم وهذا المستوى من الخبرة.

وفي معركة العقاب، تتراكم الإخفاقات الاستراتيجية بشكل مذهل. بدءاً من حصار قلعة شلبطرة الذي استغرق ثمانية أشهر كاملة، فنيبت فيها أزواد الناس وقلت علوفاتهم وکلت عزائمهم وفسدت نياتهم وانقطعت الأمداد عن المحلة فغلت الأسعار ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضرر. وهذا خطأ فادح في التخطيط اللوجستي، خاصة مع الأعداد الضخمة التي تصل حسب بعض الروايات إلى ستمائة ألف مقاتل. وإضافة إلى ذلك، تأخر صرف العطاء للجند في عهد محمد الناصر، مما أدى إلى تدميرهم وسخطهم على الوزراء،

فخرجوا إلى المعركة وهم غير متحمسين للقتال، بل تقاعس كثير منهم عن الاشتباك الفعلي وتعتمد بعضهم الانسحاب. لكن أخطر الأخطاء الاستراتيجية في العقاب كان الإخفاق في استثمار النصر السابق في معركة الأرك. فالمنصور رغم انتصاره وغنمه الشيء الكثير، انسحب متجهًا إلى إشبيلية دون فتح طليطلة، بل روي أنه تعاطف مع والدة ألفونسو ونسائه الباكيات فأطلق سراح أسرى الأرك واستجاب لطلب المهادنة. وقد أغفل الموحدون فرصة تاريخية، خاصة أن ظروف الممالك النصرانية كانت مهياة بسبب الخلافات بينهم، لكن فترة الهدنة منحتهم وقتًا لتنظيم صفوفهم والعودة بقوة للحرب تحت راية حملة صليبية كبرى، وهو ما لم يدركه الخليفة الناصر إلا بعد فوات الأوان.

المطلب الثالث: أثر الروح المعنوية والدافع العقائدي

تعد الروح المعنوية عنصرًا قد يفوق أهمية العدد والعتاد في كثير من المعارك، وقد لعبت دورًا بارزًا في هزائم المسلمين الثلاث بطرق مختلفة. ففي بلاط الشهداء، كانت الروح المعنوية مرتفعة في بداية الحملة بفضل سلسلة الانتصارات السريعة في جنوب فرنسا، لكن سرعان ما أثر عليها عاملان رئيسيان. الأول هو الاغترار بالكثرة، حيث بلغ الجيش عددًا كبيرًا غير مسبوق في تاريخ الأندلس، وهو ما وُلد شعورًا بالثقة المفرطة والاطمئنان إلى النصر، وقد شبه بعض الباحثين هذه الحالة بما وقع في غزوة حنين كما ذكرنا سابقًا، أما العامل الثاني فهو مسألة الغنائم التي تذهب الرواية الأوروبية إلى أنها شغلت بعض المقاتلين، مما أحدث خللًا في الصفوف في لحظة حاسمة، غير أن بعض الباحثين يرفضون هذه الرواية لعدم ورودها في المصادر الإسلامية ولأن حمل الغنائم إلى ساحة معركة فاصلة أمر غير منطقي عسكريًا. وعلى أية حال، يبقى العامل النفسي الأهم هو الانهيار الذي تلا استشهاد القائد، فقد كان بمثابة الضربة القاضية التي حولت الثقة إلى فوضى.

أما في معركة الخندق، فقد أصيبت الروح المعنوية بخلل انطلق من القمة نفسها. فقد فوت الناصر الجموع من شتى أرجاء مملكته حتى فاقت جموعه مئة ألف مقاتل، مما أدخل

روح الثقة في نفسه حتى أنه سماها "غزة القدرة". هذه الثقة المفرطة جعلته غير مستعد للمفاجآت التي واجهها في الميدان، وحين حلت المفاجأة على شكل كمين في المؤخرة، تحولت الثقة الزائدة إلى انهيار نفسي سريع. وقد تفاقم الوضع بسبب سوء معاملة الناصر للقادة العرب والبربر، وهو ما جعلهم يفتقرون إلى الحماس للدفاع عنه وعن قيادته.

وفي معركة العقاب، يتجلى التداخل بين الروح المعنوية وسوء الإدارة بشكل دراماتيكي. فالجنود خرجوا إلى القتال وهم كارهون له بسبب تأخر صرف أعطياتهم، وهو ما قوض الدافع المادي، بينما قوضت السياسات الظالمة الدافع المعنوي والديني. وقد ذكرت المصادر أن المتطوعة استشهدوا عن آخرهم، بينما كان قواد الأندلس ينظرون ولم يبادروا إلى القتال. وما ذلك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيات وتحول الدافع العقائدي إلى خيبة أمل وإحساس بالظلم. حتى إن بعض المؤرخين أشار إلى أن حرق مدونة الإمام مالك مثلاً عدّه صاحب بيوتات فاس الكبر سبباً في انقراض دولة الموحدين بتسليط الله النصارى عليهم في يوم العقاب. والخاصة أن الدافع العقائدي وحده لا يصمد أمام مظالم الإدارة وسوء القيادة، وأن الاغترار بالعدد والانتصارات السابقة سرعان ما يتحول إلى نقطة ضعف نفسية قاتلة حين تظهر مفاجآت الميدان.

المطلب الرابع: دور الجغرافيا والتحالفات

لا يمكن فهم أي من هذه الهزائم دون وضع عامل الجغرافيا والتحالفات في الاعتبار، إذ يشكلان الإطار الخارجي الذي تجري فيه العمليات العسكرية. ففي بلاط الشهداء، كانت جبال البرانس هي الحد الطبيعي بين مملكة الفرنجة والمسلمين في الأندلس، وقد كان لهذه الجبال دور متباين في معارك الفتح. فتارة تكون حامية للمسلمين وملجأ لهم كاحتفاء طارق بن زياد بالمرتفعات الجنوبية في معركة وادي لكة، وتارة أخرى يعتصم بها جيش العدو ويصعب على المسلمين اختراقها لشدة وعورتها. وفي بواتيه، كانت وعورة الأرض سبباً مباشراً

في هزيمة المسلمين، إذ حرمتهم من القدرة على المناورة واستغلال سلاح الفرسان الذي كان العمود الفقري لجيوشهم. والأسوأ من ذلك أن الجيش الإسلامي كان يقاتل في عمق أراضي بعيدة عن قواعده في الأندلس، مما صعب عليه مسألة الإمدادات والدعم، بينما كان خصمه شارل مارتل أكثر دراية بطبيعة الأرض واستطاع تنظيم قواته بشكل فعال مستفيدًا من هذا العامل، وهو ما منحه ميزة إضافية في إدارة المعركة.

أما في معركة الخندق، فالجغرافيا لعبت الدور الأكثر حسماً، بل إن الناصر نفسه اعترف بذلك في بيانه حين ذكر أن السبب الحقيقي للهزيمة لم يكن قتالاً مباشراً، بل كميناً بسبب ضيق المسالك ووعر الطريق وسوء فهم الدليل، مضيفاً أن الجيش حوَصر بين قوات العدو وخندق عميق فسقط الكثيرون فيه. هنا لم تكن الجغرافيا مجرد عائق، بل تحولت إلى سلاح فتاك استخدمه العدو بمهارة ضد جيش مترهل بالثقة الزائدة. ولم تكن المعركة خسارة ميدانية بالمعنى التقليدي، لكنها خسارة تكتيكية ناجمة عن سوء تقدير للطبيعة الجغرافية للمنطقة التي يجري فيها القتال.

وفي معركة العقاب، ننتقل من الجغرافيا الطبيعية إلى الجغرافيا السياسية التي كانت أكثر خطورة وتأثيراً. فالإخفاق في استثمار نصر الأرك ورفض فتح طليطلة، ومنح الفرصة للملك ألفونسو الثامن لطلب المهادنة والاستعداد للثأر، كل ذلك أتاح للممالك النصرانية فرصة لتجاوز خلافاتها الداخلية والتوحد في مواجهة خطر مشترك. وقد توعد ألفونسو بالانتقام والثأر من المسلمين، وأطلق حملة صليبية كبرى لم تكن الأندلس مستعدة لمواجهة لها. وإضافة إلى ذلك، كانت المسافات الطويلة بين خطوط التموين والقوات العسكرية عائقاً كبيراً، خاصة مع الأعداد الضخمة التي ذكرتها الروايات، مما جعل عملية الإمداد بالطعام والعلف والماء مشكلة مزمنة فاقمها حصار شلبطرة الطويل الذي استمر ثمانية أشهر. والجدير بالذكر أن راميرو الثاني بعد انتصاره في الخندق لم يتمكن من استثمار الموقف لصالحه لأنه واجه تمرداً داخلياً من قبل فرنان غونثالث كونت قشتالة ودييغو مونوث كونت سلدانيا، مما اضطره إلى طلب

معاهدة جديدة مع عبد الرحمن الناصر الذي قبلها وأدرك خطأ سياسته فعمد إلى اتخاذ سياسة جديدة نحو أمراء الثغر الأعلى من العرب والمولدين بتقليدهم شئون مدنهم وإطلاق أيديهم للدفاع عنها. ومن هنا نرى أن الجغرافيا وحدها لا تصنع النصر أو الهزيمة، بل هي إطار تتفاعل داخله القرارات السياسية والتحالفات الخارجية والكفاءة العسكرية.

بعد هذا التحليل لأسباب الهزيمة في المعارك الثلاث، يمكن تصنيف هذه الأسباب إلى ثلاثة مستويات متداخلة ومتكاملة. المستوى الأول هو المستوى القيادي والإداري، ويشمل غياب خطة خلافة القائد في بلاط الشهداء، والاعتماد على فصيل عسكري على حساب الآخرين في الخندق، والفساد الإداري واحتكار الوزير للرأي وإعدام القادة في العقاب. المستوى الثاني هو المستوى النفسي والتنظيمي، ويشمل الاغترار بالكثرة في المعارك الثلاث، وضعف الانضباط أمام الغنائم في بلاط الشهداء، والثقة المفرطة التي وصلت إلى درجة تسمية الجيش "غزة القدرة" في الخندق، وانعدام العدالة في صرف العطاء مما أضعف الدافع المادي والمعنوي في العقاب. المستوى الثالث هو المستوى الاستراتيجي والجغرافي، ويشمل القتال في أرض وعرة بعيدة عن خطوط الإمداد في بلاط الشهداء، والوقوع في كمين جغرافي بسبب ضيق المسالك وسوء الدليل في الخندق، وعدم استثمار نصر الأرك السياسي والعسكري وإتاحة الفرصة للعدو لتشكيل تحالف صليبي في العقاب.

الخاتمة

الخاتمة:

تعد دراسة عوامل النصر والهزيمة في المعارك الفاصلة من أبرز مقاربات الكتابة التاريخية لفهم مسار الحضارة الإسلامية في الأندلس، إذ تتيح تجاوز السرد الحدتي إلى التحليل البنوي للعوامل الموضوعية والذاتية التي صاغت مجرى الصراع مع الممالك النصرانية في الشمال على امتداد ثمانية قرون. وقد انطلق هذا البحث من فكرة مركزية مؤداها أن التبديل في موازين القوى لم يكن رهناً بالبطولات الفردية أو الظرفية الآنية، بل كان مرتهاً بجملة مترابطة من العناصر السياسية والعسكرية والعقائدية والجغرافية، وأن مراحل القوة الإسلامية لم تكن نتاج الصدفة كما أن مراحل الضعف لم تكن محض تقصير عابر.

لقد أبانت الدراسة، من خلال تتبعها لمسار الفتح الإسلامي للأندلس منذ أوائل القرن الثاني الهجري، أن معركة وادي لكة (92هـ/711م) مثلت نموذجاً أصيلاً للنصر المبني على وحدة القيادة تحت راية طارق بن زياد وموسى بن نصير، والتخطيط الاستراتيجي المحكم الذي سبق المعركة بأعمال استخباراتية دقيقة، والاستثمار الأمثل للجغرافيا باستغلال تضاريس وادي برباط، والدافع العقائدي الذي منح الجيش الإسلامي - رغم التفاوت العددي - قوة دفع معنوية حاسمة. هذه العوامل مجتمعة أتاحت للمسلمين اجتياز مضيق جبل طارق وتحقيق نصرٍ أسس لحضور إسلامي ممتد في شبه الجزيرة الأيبيرية استمر لنحو ثلاثة قرون.

وفي المقابل، مثلت معركة بلاط الشهداء (114-115هـ/732م) منعطفاً مفصلياً أظهر هشاشة الامتداد العسكري حين يفتقر إلى العمق الاستراتيجي والدعم اللوجستي. فقد أثبت البحث أن هزيمة المسلمين أمام شارل مارتل لم تكن نابعة من ضعف عسكري بقدر ما كانت نتيجة لظروف موضوعية تراكمت: البعد عن قواعد الإمداد، صعوبة التضاريس والمناخ، غياب وحدات الاستطلاع الفعالة، فضلاً عن الانقسامات القبلية التي تلمست بصماتها في سير المعركة. هذه الهزيمة، رغم أنها لم تهدد الوجود الإسلامي في الأندلس ذاتها، إلا أنها أرست حداً شمالياً لحركة الفتوح وأظهرت أن التوسع دون تأمين المؤخرة وتوطيد الحكم يحمل في طياته عوامل التراجع.

وعند الانتقال إلى عصر ملوك الطوائف (422-479هـ)، كشفت الدراسة أن معركة الزلاقة (479هـ/1086م) جاءت كنموذج مضاد يعيد إنتاج عوامل النصر التي تأسست عليها الفتوح الأولى. فقد نجح يوسف بن تاشفين في توحيد القوى الإسلامية تحت راية الجهاد، مستثمراً الشرعية الدينية التي وفرها له فقهاء المالكية، ومحققاً وحدة القيادة التي كانت غائبة في عقود الطوائف. كما أظهر التخطيط الاستراتيجي المتقن - من خلال المناورة بالمدد والمفاجأة بالهجوم - أن الكفاءة العسكرية وحدها لا تكفي إن لم تساندها روح معنوية عالية ورؤية استراتيجية واضحة. لقد شكلت الزلاقة نقطة تحول أعادت التوازن العسكري لمصلحة المسلمين لعقود.

ثم جاءت معركة الأرك (591هـ/1195م) في ذروة القوة الموحدية لتؤكد أن عوامل النصر حين تتكامل - قيادة حكيمة (أبو يوسف المنصور)، تخطيط محكم، روح عقائدية عالية، استغلال للجغرافيا - فإنها تؤدي إلى انتصارات كاسحة. غير أن الموحدين أنفسهم، وبعد عقد ونصف فقط من الأرك، سيتعرضون لأسوأ هزيمة في تاريخهم في حصن العقاب (609هـ/1212م)؛ الهزيمة التي جاءت نتيجة تراكم الانقسامات الداخلية، وتقشي الغرور بعد الانتصارات المتتالية، وضعف القيادة في ظل الخليفة الناصر، وعدم تناسق الجيش المتعدد الإثنيات، فضلاً عن براعة التحالفات النصرانية واستغلالها لعنصر المفاجأة. هذه الهزيمة لم تكن مجرد معركة خاسرة، بل كانت إيذاناً ببداية النهاية للحضور الإسلامي الموحد في الأندلس. من خلال الدراسة التحليلية المقارنة للمعارك الست، يمكن استخلاص جملة من الاستنتاجات الجوهرية:

أولاً: يبرز العامل العقائدي والروح المعنوية كقوة دفع أساسية؛ فالجيوش التي تقاتل بدافع الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين كانت أكثر تماسكاً وقدرة على الصمود في الظروف الصعبة، بينما الجيوش التي تقتصر إلى هذا الدافع، أو التي تتقلها الخلافات المذهبية، أو التي ابتعدت مجتمعاتها عن الدين في الحياة اليومية وانغمست في الملذات واستكانت للراحة كانت أسرع إلى الانهيار، إن الجهاد في عقيدة المسلمين تجارة مع الله لا خسارة فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: 111﴾.

ثانياً : إن وحدة القيادة من العوامل الأكثر تأثيراً في تحديد نتائج المعارك؛ فكلما كانت القيادة مركزية متماسكة ذات شرعية مقبولة (كطارق، يوسف بن تاشفين، المنصور الموحدي) تحقق النصر، وكلما كانت القيادة منقسمة أو ضعيفة أو متنازعة على شرعيتها (كأيام الطوائف وأواخر عهد الموحيدين) كان الهزيمة حليفاً للمسلمين.

ثالثاً : إن الكفاءة العسكرية والتخطيط الاستراتيجي يظلان رهناً بمدى توفر المعلومات الاستخباراتية الدقيقة، وحسن اختيار ساحة المعركة، والتوقيت المناسب للهجوم، وإدارة الاحتياطات بكفاءة. لقد أظهرت الزلافة والأرك نموذجاً في التخطيط المحكم، بينما كشفت بلاط الشهداء وحصن العقاب عن قصور فادح في هذا المجال.

رابعاً: لعبت الجغرافيا والتحالفات دوراً حاسماً؛ فاستغلال التضاريس كان عاملاً مساعداً للنصر في وادي لكة والزلافة، بينما شكل عائناً في بلاط الشهداء. أما التحالفات، فإنها عندما كانت تُبنى على أسس سليمة وثابتة واضحة (كتحالف المرابطين مع ملوك الطوائف مبدئياً) كانت مفيدة، ولكن عندما تحولت إلى تبعية سياسية أو ابتزاز مالي (كضريبة الباريا) أسهمت في إضعاف الدولة من الداخل.

خامساً : تشير المقارنة بين المعارك الست إلى أن مراحل القوة والضعف تتناوب في صيرورة الحضارة الواحدة، وأن الانتصارات الكبرى لا تعني خلوداً، كما أن الهزائم المدوية لا تعني نهاية حتمية. فالمسلمون استطاعوا بعد هزائم الطوائف أن يستجمعوا قواهم بقيادة المرابطين ثم الموحيدين، ولكن ضعف الدولة المركزية وعودة الانقسامات هي التي مهدت الطريق لسقوط غرناطة النهائي عام 897هـ/1492م.

في ضوء هذه الاستنتاجات، يمكن القول إن نجاح المشروع الحضاري في الأندلس لم يكن مرتبطاً بقدرات عسكرية فقط، بل بمدى قدرة الدولة الإسلامية على تحقيق التوازن بين ثلاث دوائر: الدائرة السياسية (وحدة القيادة والشرعية)، والدائرة العسكرية (التخطيط والكفاءة)، والدائرة المجتمعية (التماسك الاجتماعي والروح المعنوية). وكل هذه الدوائر تتقاطع في رابطة أساسية هي الإيمان بالله والتمسك بالعقيدة المتينة. وحين اختل هذا التوازن في مراحل متأخرة - بتفشي النزاعات الداخلية، وضعف الولاء للدولة المركزية، وتبدد الدافع الجهادي - تداعت أركان الوجود الإسلامي في الأندلس رغم التفوق العددي أو النوعي أحياناً.

إن دراسة هذه المعارك لا تمثل فقط استذكراً لماضي مجيد أو حزين، بل هي استخلاص لدروس وعبر تبقى حية في الفكر العسكري والاستراتيجي الإسلامي: أن النصر ليس مجرد قدر، بل هو نتاج لأسباب وسنن كونية يمكن تحليلها وفهمها، وأن عوامل الهزيمة يمكن توقيها إذا ما أحسن قراءة التاريخ وتجارب السابقين. كما تؤكد هذه الدراسة أن الاعتزاز بالعقيدة والتمسك بالوحدة، وإحكام التخطيط، والاستفادة من الجغرافيا، وبناء تحالفات متوازنة، هي مفاتيح لا تزال صالحة لكل زمان ومكان.

لقد خلص بحثنا في محاولته للإجابة عن إشكاليته المركزية إلى أن عوامل النصر والهزيمة في المعارك الفاصلة بالأندلس لا ترجع إلى عامل واحد، بل إلى تفاعل معقد من العناصر السياسية والعسكرية والعقائدية والجغرافية، وأن قراءة هذا التفاعل قراءة علمية موضوعية هي التي تمنحنا فهماً متكاملًا لمسار التاريخ الأندلسي عموماً، ولطبيعة الصراع بين المسلمين والممالك النصرانية خصوصاً.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

- ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المصري (ت 257 هـ) ، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1995م.
- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموي القرطبي (ت 469هـ-1076م)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م،
- ابن عذارى أبو عبد الله محمد أو أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة 712هـ) المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م،
- ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم الأندلسي (ت 367هـ-977م) ، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1994م،
- ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي (ت 776هـ) ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م،
- المقري أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،
- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد وليّ الدين الحضرمي الإشبيلي (ت 808هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن

- عاصره من نوي الشأن الأكبر ، دار الفكر، بيروت، 2000م، ج4، ص136، ص138؛
- ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني (ت542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979م،
 - ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي (ت بعد741هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مطبعة فاس، 1345هـ،
 - ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965م،
 - مؤلف مجهول، الحلل الموشية في نكر الأخبار المراكشية، تحقيق: السيد البشير الفوي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، (دون تاريخ)،
 - مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة - دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م،
 - الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م، ص35، ص416.
 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (دون دار نشر)،
 - الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، 1967م، ص366.
 - أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، (دون دار نشر)،

ثانياً: المراجع

- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص268،

- راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011.
- محمود شيت خطاب، قادة فتح الأندلس، منار للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2003.
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1997م.
- عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، 1981م.
- حسين مؤنس، فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، 2002م.
- حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، دار الرشاد، القاهرة، 1985م، ص112-118.
- عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان، (دت)
- كولان، الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1980م،
- دوزي رينهارت، المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1995م، ج1.
- خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2000م،
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج4، ص144.
- السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط4.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، ط3، 2010.
- خالد يونس الخالدي، اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، ط1، 2008م،

- سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية، 1998م، ط1
- أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دار أطلس للنشر والتوزيع، 1983م.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، مؤسسة هنادي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م،
- شوقي أبو خليل، بلاط الشهداء، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993م.
- شوقي أبو خليل، الزلافة بقيادة يوسف بن تاشفين، دار الفكر، دمشق، 1980م.
- عبد المجيد نعني، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس - التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.
- يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996م.
- عدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م،
- حامد محمد الخليفة، "انتصارات يوسف بن تاشفين (400هـ/1009م - 500هـ/1106م) بطل معركة زلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين"، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، ط1، 2004م،

ثالثاً: الرسائل الجامعية

- شنين رانيا، معافي سومية، معروفي سارة، المظاهر الاجتماعية في عصر ملوك الطوائف من خلال الأدب الأندلسي، مذكرة ماستر، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2021-2022م.
- هشام حربي، "الحياة السياسية في الأندلس عصر ملوك الطوائف: مملكة بني عباد نموذجاً (414-484هـ/1017-1079م)"، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2017-2018م.

- شارف أحمد، "السلطة والمجتمع بالأندلس في عصر المرابطين (479-539هـ/1058-1144م)"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
- فضيل بوالصوف، العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010-2011م.
- بن حاج ميلود، "الصراع الإسلامي النورماني في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني (206هـ/822-854م)"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
- يونس فنيط، كلثوم مصباح، "الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين (479-500هـ/1086-1106م)"، مذكرة ماستر، جامعة غرداية، 2018-2019م.
- بعاج مقدم، غنيمي أميمة، "الانحلال الأخلاقي في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف 422-484هـ/1031-1090م"، (دون تفاصيل الجامعة)، 2020-2021م.
- العايب ناصر، خليفة حنان، "مملكة قشتالة ودورها في إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس (ق5هـ - ق9هـ)"، مذكرة ماستر، جامعة تيارت، 2021-2022م.
- العربي محمد أمين، العربي سكيينة، "معركة الزلاقة وأثرها في توقيف الزحف الصليبي في الأندلس (479-540هـ)"، مذكرة ماستر، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2017-2018م.
- أحمد كرعي ووليد بورويس، معركة العقاب دراسة تحليلية في أسباب الهزيمة والتداعيات، مذكرة ماستر، جامعة يحيى فارس بالمدينة، إشراف توفيق مزارى عبد الصمد.

رابعاً: المقالات

- بو الصوف فضيل، "ضريبة الباريا Paria في الأندلس في عصر ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ/11م"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 20، ص521.

- أحمد شارف، "العقيدة وتجلياتها السياسية في فكر ابن تومرت"، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، مجلد 2، عدد 4، 2017، ص 169-170.
- بن موسى محمد، عماري عبد الجبار، "العوامل العقدية المؤثرة في سقوط الدولة الموحدية (ق6هـ وق7هـ / ق12م و ق13م)"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مجلد 4، عدد 1، 2020، ص 627.
- هرباش زاجية، "الصراع المرابطي الموحدى ببلاد المغرب الإسلامي: ثورة بني غاية أنموذجاً"، مجلة التراث، المجلد 1، العدد 1، 2014، ص 14.
- عيد السرحان خضر، إبراهيم الخصاونة دامياء، "معركة الزلاقة 479هـ/1086م"، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، مج 7، عدد 2، 2025، ص 96-99.
- خميسي بولعراس، "معركة الزلاقة 479هـ/1086م: دراسة في الاستراتيجية والتكتيك"، دراسة تراثية، المجلد 8، العدد 1، 2014، ص 155-160.
- جليد خولة، نوار نسيم، "ركائز الانتصار والتمكين في معركة الأرك الكبرى 591هـ/1195م"، مجلة البحوث التاريخية، المجلد 8، العدد 2، 2024، ص 88-100.
- فطيمة مطهري، "دور العلماء وأثرهم السياسي في توحيد المغرب والأندلس في عهد المرابطين"، مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية، المجلد 3، العدد 2، 2016، ص 21-30.
- خالد حموم، "معركة أقيش ودورها في الجهاد الإسلامي بالأندلس"، مجلة المعرف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 11، 2017، ص 47.
- حسين جبار العليايوي، "مدينة قورية CORIA الأندلسية (95-536هـ/713-1141م)"، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد 67، الجزء 1، 1997، ص 17.
- حسين رجا الشقيرات، "مدينة سرقسطة من الفتح إلى السقوط (95هـ/714م - 512هـ/1118م)"، المركز القومي للبحوث، غزة، فلسطين، 2018، ص 93-95.

- ريه أحمد عبد الظاهر محمد، "علاقة الموحدين السياسية بمملكة قشتالة الأسبانية"، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد 54، 2022، ص169.
- رماح حليلة، نبيل قرحيلي، شيرين حمودي، "دور التحالفات الملكية والدبلوماسية في تعزيز النفوذ القشتالي: ألفونسو الثامن وليونور أنموذجاً (1169-1192م)"، مجلة (دون اسم)، مجلد 8، عدد 3، 2025، ص524-526.
- أحمد الظرافي، "جهاد المسلمين في فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء"، دراسات تاريخية، العدد 463، ص187.
- بن خيرة أحمد، غانية البشير، "التحضير والتخطيط العسكري في المعارك الحربية عند الموحدين ضد النصارى بالأندلس: معركة الأرك أنموذجاً"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 4، العدد 2، 2020، ص15-16.
- فاطمة بلهوارى، "التأصيل التاريخي لحركة الموحدين خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي"، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، العدد 12، 2000، ص50-52.
- هجيرة عمراوي، "معركة حصن العقاب (609هـ/1212م): أثرها السياسي والديموغرافي على الوجود الموحدى بالغرب الإسلامي"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج9، ع2، جوان 2024، ص115-137

خامساً: المواقع الإلكترونية

الموسوعة العربية، "بلاط الشهداء"، -<https://mail.arab-ency.com.sy/details/4375>

الموسوعة العربية، "الأندلس تاريخياً"، -<https://arab-ency.com.sy/details/14658>

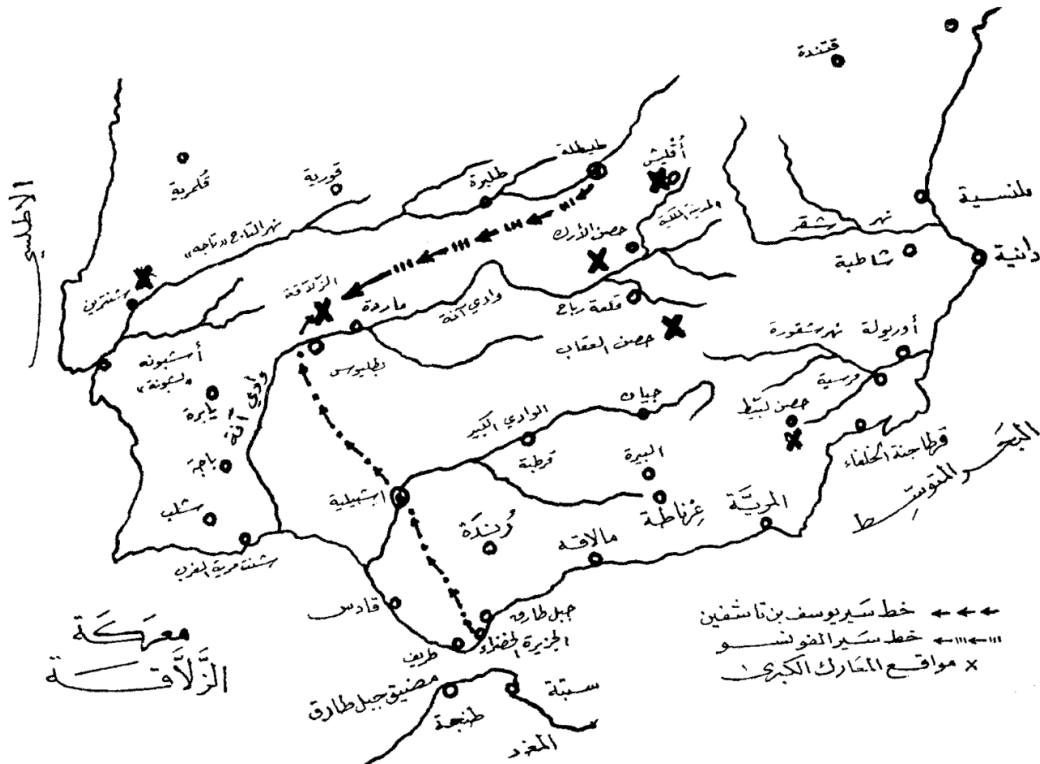
الملاحق

الملاحق:



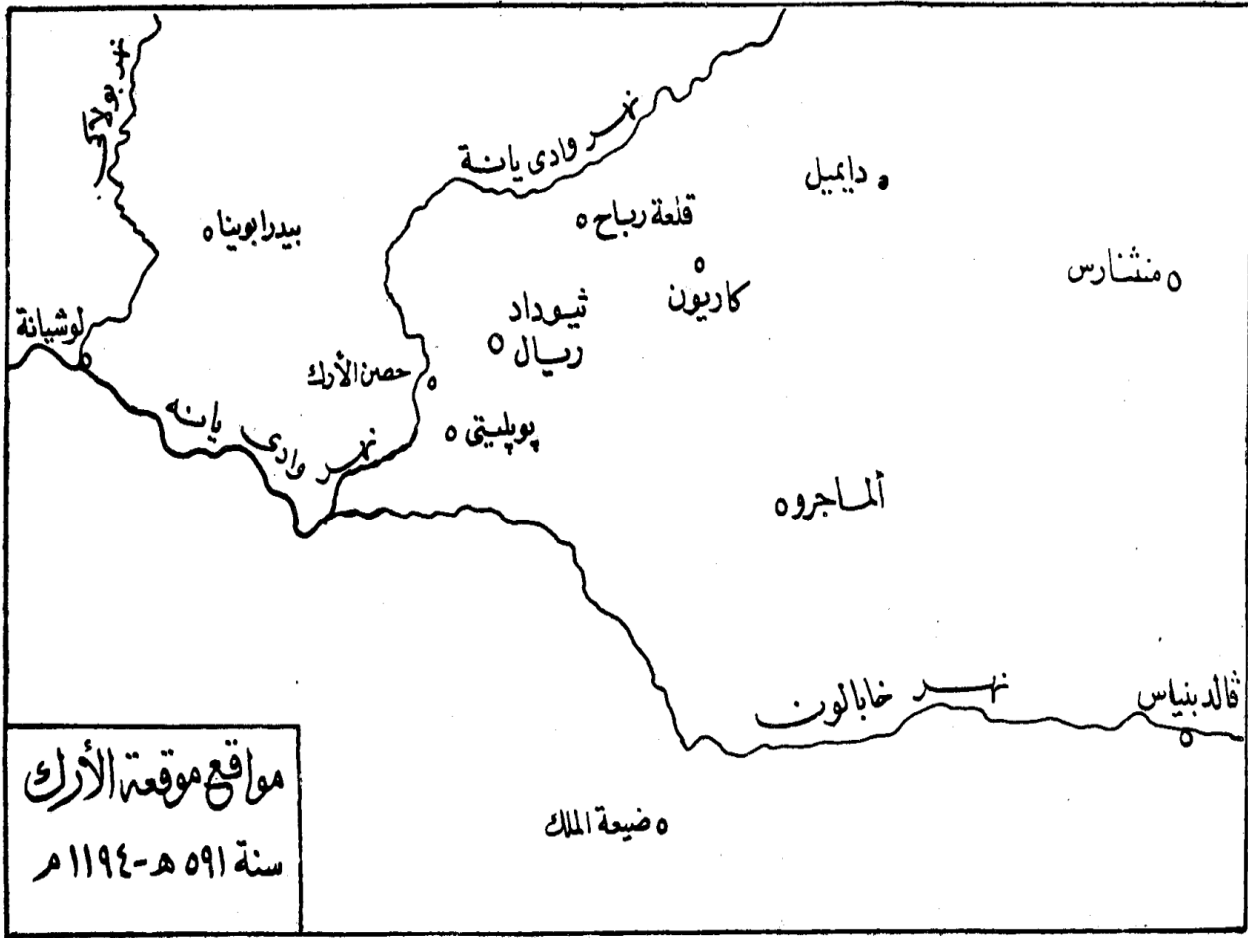
الملحق 1: خريطة معركة وادي لكة

حسين مؤنس، أطلس التاريخ العربي، ص 98



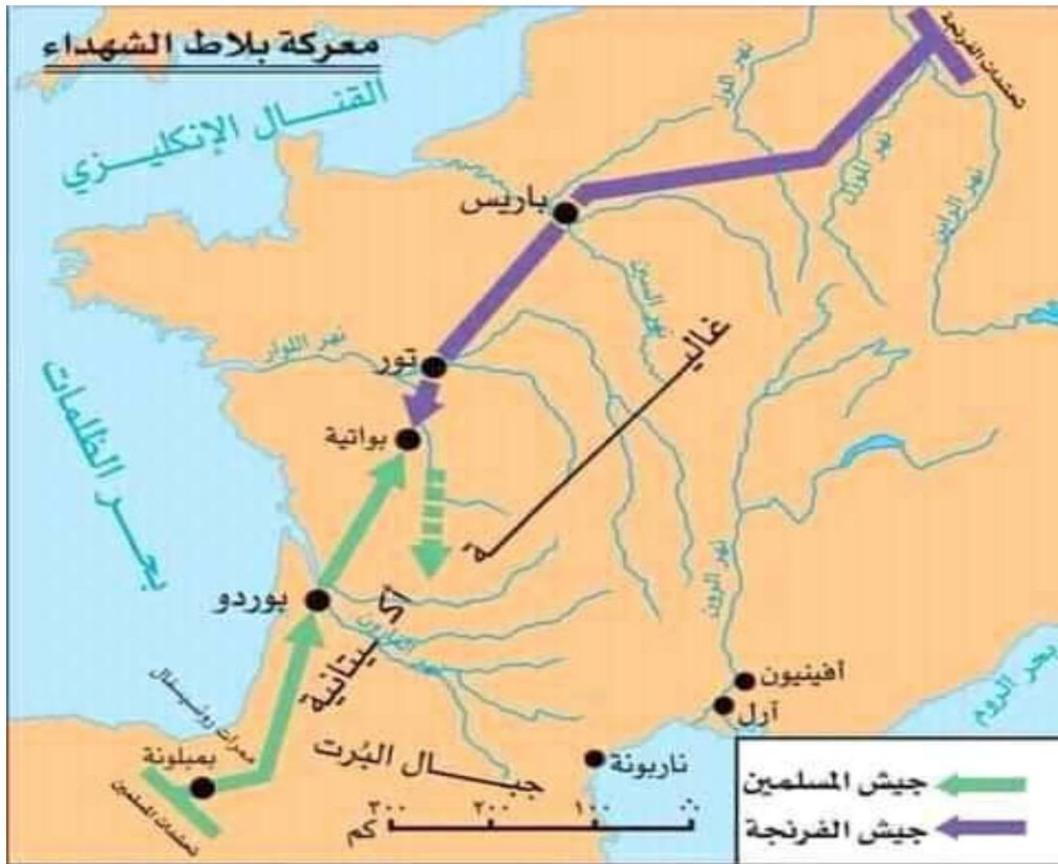
الملحق 2: خريطة سير معركة الزلاقة

- شوقي أبو خليل، الزلاقة، ص 90



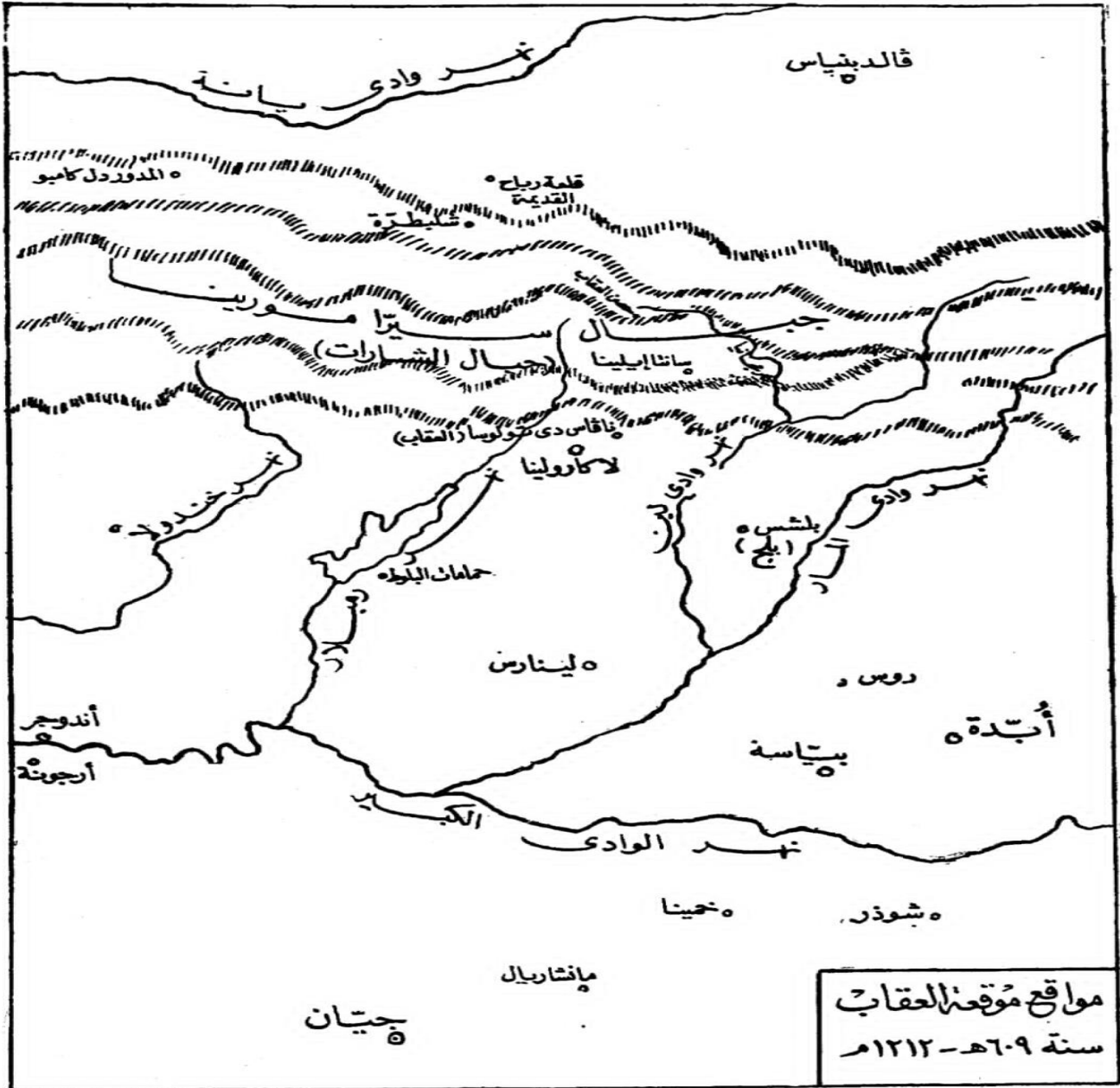
الملحق 3: خريطة مواقع معركة الأرك

- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج 3، ص 205



الملحق 4: خريطة معركة بلاط الشهداء ومسار جيشي المسلمين والفرنجة

- شوقي أبو خليل، بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمان الغافقي، ص 77



الملحق 5: خريطة مواقع معركة العقاب

-عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج 3، ص 299

الفهرس

فهرس المحتويات

مقدمة: أ

الفصل الأول: الخلفية التاريخية للصراع الإسلامي - النصراني في الأندلس

المبحث الأول: من الفتح الإسلامي للأندلس إلى نهاية الدولة الأموية..... 10

المطلب الأول: الفتح الإسلامي للأندلس وتأسيس الحضور الإسلامي (92-138هـ) .. 10

المطلب الثاني: قيام الدولة الأموية في الأندلس ودورها العسكري (138-422هـ) 13

المبحث الثاني: عصر ملوك الطوائف وتداعيات الانقسام (422-479هـ) 16

المطلب الأول: أسباب سقوط الدولة المركزية وظهور الطوائف 16

المطلب الثاني: تفكك القوة العسكرية الإسلامية في عصر الطوائف..... 19

المطلب الثالث: نتائج الانقسام السياسي والعسكري وأثره على المعارك اللاحقة 22

المبحث الثالث: دور الدول المغربية في إعادة التوازن للأندلس 25

المطلب الأول: المرابطون ووحدة القوة (479-541هـ) 25

المطلب الثاني: الموحدون واستعادة المبادرة (541-609هـ) 32

الفصل الثاني: معارك النصر في تاريخ المسلمين بالأندلس

المبحث الأول: معركة برباط (وادي لكة) 92هـ / 711م 39

المطلب الأول: السياق السياسي والعسكري السابق للمعركة: 39

المطلب الثاني: سير المعركة ومجرياتها 42

المطلب الثالث: عوامل النصر في معركة وادي لكة 46

المبحث الثاني: معركة الزلاقة 479هـ / 1086م 48

المطلب الأول: السياق السياسي والعسكري 48

- 53المطلب الثاني: مجريات القتال
- 58المطلب الثالث: عوامل النصر الحاسمة
- 60المبحث الثالث: معركة الأرك 591هـ / 1195م
- 60المطلب الأول: السياق العام وظروف المواجهة
- 62المطلب الثاني: سير المعركة
- 63المطلب الثالث: عوامل الانتصار الموحد
- 65المبحث الرابع: عوامل النصر في المعارك الثلاث (دراسة تحليلية مقارنة)
- 65المطلب الأول: وحدة القيادة والشرعية السياسية
- 67المطلب الثاني: الكفاءة العسكرية والتخطيط الاستراتيجي
- 69المطلب الثالث: أثر الروح المعنوية والدافع العقائدي
- 71المطلب الرابع: دور الجغرافيا والتحالفات
- الفصل الثالث: معارك الهزيمة في تاريخ المسلمين بالأندلس
- 75المبحث الأول: معركة بلاط الشهداء (114-115هـ / 732م)
- 75المطلب الأول: ظروف المعركة (الزمان، المكان، الخلفية العامة)
- 77المطلب الثاني: سير المعركة ونتائجها
- 80المطلب الثالث: أسباب هزيمة المسلمين
- 83المبحث الثاني: معركة الخندق في الأندلس (327 هـ - 939م):
- 83المطلب الأول: ظروف وسياق المعركة
- 85المطلب الثاني: سير المعركة ونتائجها
- 87المطلب الثالث أسباب هزيمة المسلمين

88	المبحث الثالث: معركة حصن العقاب (609 هـ-1212م)
88	المطلب الأول: ظروف المعركة وسياقها التاريخي
89	المطلب الثاني: مجريات المعركة ونتائجها:
94	المطلب الثالث: أسباب هزيمة المسلمين
97	المبحث الرابع: أسباب الهزيمة من المعارك الثلاث (دراسة تحليلية مقارنة)
97	المطلب الأول: وحدة القيادة والشرعية السياسية
99	المطلب الثاني: الكفاءة العسكرية والتخطيط الاستراتيجي
100	المطلب الثالث: أثر الروح المعنوية والدافع العقائدي
101	المطلب الرابع: دور الجغرافيا والتحالفات
105	الخاتمة:
110	قائمة المصادر والمراجع:
118	الملاحق:
123	فهرس المحتويات